السلام في الاسلام

وبحوث أخرى

البنا

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01223 5754

مجموعة

كتابات الإمام الشهيد

حسن البنا

BP
161
B3x

السلام في الإسلام

وبحوث أخرى

دار الفكر الإسلامي - القاهرة

د.ط
د.ت

في هذه الرسالة

السلام في الإسلام

« الله » في العقيدة الإسلامية

تفسير سورة الفاتحة والآيات الأولى من سورة البقرة

OCLC
31263888

B12231459
13534427

٤١٠,١
س ، حب

36682

مُقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

رأت دار الفكر الإسلامى أن تقوم بجمع كتابات الإمام الشهيد حسن البنا رضوان الله عليه فى سلسلة موحدة من المطبوعات ، مستهدفة فى ذلك أمرين : أولهما الوفاء لذكرى رجل كانت حياته ومماته فى سبيل الدعوة التى عمل لها وآمن بها ، وثانيهما تزويد المكتبة العربية بأروع صورة تمثل الفكرة الإسلامية فى ثلث القرن الأخير ، ولا سيما وأن الكثير من كتابات الشهيد لم تطبع ، بعد نشرها أول مرة ، على كثرة ما طبع من كتاباته . مثال ذلك « المقالات » التى نشرت طوال عشرين عاماً فى المجلات والصحف ، والتى تصور تطور الفكرة الإسلامية ، ولما تجمع بعد فى رسائل مستقلة .

والكتاب الذى بين يدى القارىء يتضمن ثلاث رسائل : الأولى هى « السلام فى الإسلام » وهى متضمنة أربع مقالات نشرت بالأعداد الثانى

والثالث والرابع والخامس من مجلة الشهاب تحت عنوان باب ثابت هو « أص
الإسلام كنظام اجتماعى » ، وقد أعطيناها اسم « السلام فى الإسلام » لأ
هو موضوع المقالتين رتين منهما .

والرسالة الثانية هى « الله فى العقيدة الإسـلامية وتمثل ثلاث مقالا
نشرت بالأعداد الأول والثانى والثالث من مجلة الشهاب تحت عنوان با
ثابت هو « الفقه والتشريع والمعتقدات » وموضوعها هو « الله » .

والرسالة الثالثة فى التفسير ، وهـذه تتكون من خمس مقالات نشرت واحدة منها فى كل عدد من أعداد مجلة الشهاب الخمسة التى قدر لها الظهور ، وتناول الإمام الشهيد فيها بعد مقدمة عن التفسير تفسير سورة الفاتحة والآيات الأولى من سورة البقرة .

وهذه الـكتابات هى آخر ما كتبه الإمام الشهيد ، فلا غرو إذا كانت تمثل قمة النضج ، وذروة الفهم لمواضيعها ، وقد أرسى فى كل منها الأسس الصخرية والمبادىء الأولى للمواضيع التى عالجها ، تاركا التفاصيل لما كان سيأتى بعد .

والله نسأل أن يتقبلها وينفع بها وهو ولى التوفيق .

دار الفكر الاسلامى

الرسالة الأولى

السلام فى الإسلام

– ١ –

إتجاه النهضة الجديدة فى العالم الإسلامى*

يرى المراقبون الاجتماعيون والسياسيون والمعنيون بتطورات الحياة فى الأمم والشعوب أن العالم الإسلامى وفى مقدمته العالم العربى طبعاً ، يتجه بنهضته الحديثة اتجاهاً إسلامياً . وأن هذا الاتجاه يقوى تياره بالتدريج .

وبعد أن كان الكتاب والمفكرون والعلماء والزعماء يتغنون بأصول الحضارة الأوربية ووجوب الاصطباغ بصبغتها والأخذ الكامل بأساليبها ومناهجها تبدلت هذه النغمة وحل محلها التحفظ والحذر ارتفعت الأصوات المنادية بوجوب العودة إلى أصول الإسلام وتعاليمه ومناهجه وتقريب الحياة العصرية فى هذه الشعوب إليها بقدر الإمكان تمهيداً للاصطباغ الكامل بصبغة الإسلام .

أسباب :

ويزعج هذا الاتجاه كثيراً من الحكومات والدول الغربية التى عاشت

(*) نشرت بالعدد الثانى من مجلة الشهاب الصادر فى غرة صفر سنة ١٣٦٧ هـ (١٤ ديسمبر سنة ١٩٤٧م) .

طوال القرون الماضية فى عقلية الذى لا يعرف عن الإسلام إلا التعصب والجمود ولا يرى فى المسلمين إلا شعوباً مستضعفة للتسخير وأوطاناً خصبة للاستعمار وأخذوا يتوجسون من هذه الحركة ويذهبون فى تفسيرها وتأويلها كل مذهب فمن قائل أنها نتيجة قيام الهيئات المتطرفة والجماعات المتعصبة ، ومن قائل أنها رد فعل للضغط السياسى والاقتصادى الذى شعرت به هذه الأمم الإسلامية فى هـذه الأعصار ، ومن قائل أنها وسيلة يتوصل بها بعض طلاب الحكم والجاه إلى الظهور والمنصب . وكل هذه الأسباب فيما نعتقد بعيدة عن الحقيقة كل البعد ، وهذا الاتجاه ليس إلا نتيجة لعوامل ثلاثة فيما نرى :

إفلاس الغرب :

أولها — إفلاس الأصول الاجتماعية التى قامت عليها حضارة الأمم العربية فحياة الغرب التى قامت على العلم المادى والمعرفة الآلية والكشف والاختراع وإغراق أسواق العالم بمنتجات العقول والآلات لم تستطع أن تقدم للنفس الإنسانية خيطاً من النور ، أو بصيصاً من الأمل أو شعاعاً من الإيمان . ولم ترسم للأرواح القلقة أى سبيل للراحة والاطمئنان ، وليس الإنسان آلة من الآلات . ولهذا كان طبيعياً أن يتبرم بهذه الأوضاع المادية البحتة وأن يحاول الترفيه عن نفسه ، ولم تجد الحياة الغربية المادية ما ترفه به عنه إلا الماديات أيضاً من الآثام والشهوات والخمور والنساء والأحفال الصاخبة والمظاهر المغرية التى تلهى بها حيناً ثم ازداد بها بعد ذلك جوعاً على جوع وأحس بصرخات روحه تنطلق عالية تحاول تحطيم هذا السجن المادى والانطلاق فى الفضاء واسترواح نسمات الإيمان والعزاء .

كمال الإسلام :

وثانيها — وهو العامل الإيجابى فى الموضوع — اكتشاف المفكرين من رجال الإسلام ما فى أصوله وقواعده من سمو ورقى وصلاحية واكتمال وأنها أكمل وأدق وأفضل وأجمع وأشمل من كل ما كشفت عنه الفلسفات الاجتماعية والعقول المصلحة إلى الآن . وقد كان المسلمون غفلوا عن ذلك حيناً من الدهر فلما كشف الله عن بصائر مفكريهم ، وقارنوا ما عندهم من قواعد دينهم الاجتماعية بما يتحدث عنه كبار الاجتماعيين وأساطين وجهابذة المفكرين ، ووجدوا البون شاسعاً والفرق بعيداً بين كنوز هذا الميراث الضخم وبين ما يلهو به هؤلاء ، لم يملكوا أنفسهم من أن ينصفوا عقولهم وتاريخهم وشعوبهم ، وأن ينادوا بنفاسة هذا الميراث ، وأن يهيبوا بهذه الأمم الغافلة إسلامية وغير إسلامية أن تستفيد من هذا الإرشاد الربانى الكريم وأن تنهج نهج هذا الصراط السوى المستقيم .

طبيعة التطور :

وثالثها — طبيعة التطور الاجتماعى بعد حربين طاحنتين اشتركت فيهما دول العالم جميعاً ، وتناولتا النفوس والأوضاع والشعوب والأفراد ، ونبتت بعدهما طائفة من المبادىء الإصلاحية والنظم الاجتماعية ، وقامت على أساسها دول ونهضت بتطبيقها ، ثم لم يمض كبير وقت حتى تناولتها يد التبديل والتغيير أو الهدم والتدمير ، والمفكرون من المسلمين ينظرون ويرقبون ويوازنون ويرجعون إلى ما بين أيديهم من كتاب ربهم وهو مشرق ، ومن سنة نبيهم وهى بينة ، ومن تاريخهم وهو مجيد ، فلا يرون لنظام من هذه النظم حسنة من الحسنات

إلا وجدوا أنها مقررة فى نظامهم الإسلامى الاجتماعى وأنهم سبقوا إليها فتحدثوا عنها أو عملوا بها ، ولا يرون لنظام من هذه النظم سيئة من السيئات إلا وجدوا أن نظامهم الإسلامى الاجتماعى قد حذر منها واحتاط لها ووصف طريق الوقاية من نتائجها وآثارها .

سادت العالم حيناً من الدهر هذه النظم الديمقراطية وانطلقت الحناجر فى كل مكان تسبح وتقدس بما جاء به هذا النظام الديمقراطى من حرية للأفراد وللشعوب على السواء ، ومن أنصاف للعقل الإنسانى بحرية التفكير ، وللنفس الإنسانية بحرية العمل والإرادة ، وللشعوب بأن تكون مصدر السلطات ، وجاء النصر فى الحرب العالمية الأولى معززاً لهذه الأفكار متوجاً إياها بأكاليل الغار ، ثم لم يلبث الناس أن تبينوا أن حريتها الاجتماعية لم تسلم من الفوضى وأن حريتها الفردية لم تأخذ الحيطة من الإباحية ، وأن سلطة الشعوب لم تبرىء المجتمع من كثير من الديكتاتوريات المستورة التى تضيع معها التبعات ولا تحدد فيها الاختصاصات ، إلى غير ذلك من المثالب والعيوب التى أدت إلى تفكك الأمم والشعوب وتخلخل نظام الجماعات والبيوت ومهدت لقيام النظم الدكتاتورية .

فقامت النازية فى ألمانيا والفاشية فى إيطاليا وأخذ كل من موسولينى وهتلر بيد شعبه إلى الوحدة والنظام والنهوض والقوة والمجد — وسرعان ماخطا هذا النظام بهاتين الأمتين فى مدارج الصلاح فى الداخل والقوة والهيبة فى الخارج وبعث فى النفوس الآمال الخالدة وأحيا الهمم والعزائم الراكدة وجمع كلمة المختلفين المتفرقين على نظام وإمام ، وأصبح الفوهرر أو الدوتشى إذا تكلم أحدهما أو خطب تفزعت الأفلاك والتفت الدهر .

ثم ماذا ؟ ثم تكشف الأمر عن أن هـذا الجهاز القوى المتماسك الذى فنيت فيه إرادات الأفراد فى إرادات الزعماء أخطأ حين أخطأوا ، فطغى بطغيانهم وانحرف بانحرافهم وهوى بسقوطهم وانتهى كل شىء وأصبح حصيداً كأن لم يغن بالأمس بعد أن بذل العالم فى حربه الثانية الملايين من زهرة الشباب والقناطير المقنطرة من الأموال والعتاد .

ولمع نجم الاشتراكية والشيوعية بعـد ذلك وزاد فى هذا البريق واللمعان معنى الفوز والانتصار ، وتقدمت روسيا السوفيتية إلى الميدان الاجتماعى تبشر بدعوتها وتدل على الدنيا بنظامها الذى تبدل فى ثلاثين عاماً عدة مرات ، وأخذت دول الديمقراطيات أو بعبارة أدق دول الاستعمار القديمة البالية أو الجديدة الطامعة تعد العدة لتوقف هذا التيار ، والصراع يقوى ويشتد تارة فى العلانية وأخرى فى الخفاء ، والدول والأمم والشعوب الحائرة على مفترق الطرق لا تدرى أين السبيل ، ومنها أمم الإسلام وشعوب القرآن والمستقبل فى ذلك كله بيد الله والحكم للتاريخ والبقاء للأصلح على كل حال .

هذا التطور الاجتماعى وهذا الصراع العنيف القوى أيقظ همم المفكرين من المسلمين فأخذوا يوازنون ويقارنون وانتهوا بعد الموازنة إلى نتيجة صحيحة سليمة هى التخلص من كل هذه الأوضاع ووجوب عودة شعوبهم وأممهم إلى الإسلام .

النظم الثلاثة فى الصلاة :

قلت ذات مرة مداعباً للسامعين فى إحدى المحاضرات — وكانت خطوة موفقة كل التوفيق والحمد لله — إن هـذه الصلاة الإسلامية التى نؤديها فى اليوم خمس مرات ليست إلا تدريباً يومياً على نظام اجتماعى عملى — امتزجت

فيه محاسن النظام الشيوعى بمحاسن النظام الديمقراطى بمحاسن النظام الدكتاتورى ، فعجبوا وقالوا كيف كان ذلك ؟ فقلت إن أفضل ما فى النظام الشيوعى من حسنات تدعيم معنى المساواة والقضاء على الفوارق والطبقات ومحاربة الاعتزاز بالملكية التى يكون عنها هذا التفاوت — وهذه المعانى كلها يستحضرها المسلم ويشعر بها تماماً وتتركز فى نفسه إذا دخل المسجد لأنه يستشعر لأول دخوله أن هذا المسجد لله ، لا لأحد من خلقه ، وأنه سواء العاكف فيه والباد ، لا صغير فيه ولا كبير ولا أمير ولا حقير ولا فوارق ولا طبقات ، فإذا صاح المؤذن :قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة — استوى هذا الجمع خلف إمامه كالبنيان المرصوص فلا يركع أحد حتى يركع الإمام ولا يسجد حتى يسجد ولا يأتى بحركة أو سكون إلا تابعاً له ومقتدياً به ومقلداً إياه ، وهذا هو أفضل ما فى النظام الدكتاتورى : الوحدة والنظام فى الإرادة والمظهر على السواء ، ولكن هذا الإمام مقيد هو نفسه بتعاليم الصلاة ودستورها ، فإذا انحرف أو أخطأ فى تلاوة أو عمل كان للصبى الصغير وللرجل الكبير وللمرأة المصلية خلفه ، كان لكل واحد من هؤلاء الحق كل الحق أن ينبهه إلى خطئه وأن يرده ، إلى الصواب فى أثناء الصلاة . وكان على الإمام كائناً من كان أن ينزل على هذا الإرشاد وأن يعدل عن خطئه إلى الحق والصواب ، وليس فى الديمقراطية أروع من هذه الحسنات فماذا بقى بعد ذلك لهذه النظم من فضل على الإسلام وقد جمع محاسنها جميعاً واتقى بهذا المزج البديع كل ما فيها من سيئات « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

لا مبرر للانزعاج :

والغربيون كما قلت — ومعهم الذين لا يعلمون — ينزعجون أشد الانزعاج لهذا الاتجاه ويرونه من الخطورة بحيث تجب عليهم محاربته بكل سبيل لأنه ليس أكثر فى عرفهم من انتصار للمبادىء الرجعية وتجميع للأمم الهمجية حولها ضد مبادىء الحضارة والمدنية وشعوب العلم والعرفان والنظام ، وهذا وهم عريق فى الخطأ وظلم صارخ للحقائق الواضحة وضوح الشمس فى وضح النهار ومهمتنا فى هذه الكلمات أن نصل معهم إلى أمرين :

أولهما : إثبات سمو أصول النظام الاجتماعى الإسلامى وفضلها على كل ما عرف الناس تلك الأصول التى منها :

(١) الأخاء الإنسانى : والقضاء على روح الكراهية والتعصب .

(٢) السلام : وخطأ الذين لا يعلمون فى فهم مشروعية الجهاد .

(٣) الحرية : وخطأ الذين يتهمون الإسلام بإباحة الرق ومصادرة الحريات .

(٤) العدل الاجتماعى : وفيه بيان رأى الإسلام فى نظام الحكم والطبقات .

(٥) الحياة الطيبة : وفيه بيان الخطأ فى فهم حقيقة الزهد .

(٦) الأسرة : وفيه الكلام على حقوق المرأة والتعدد والطلاق .

(٧) العمل والكسب : وفيه الكلام على أنواع الكسب والخطأ فى فهم التوكل .

(٨) العلم : وفيه خطأ من يتهمون النظام الإسلامى بتشجيع الجهالة والخمول .

(٩) النظام وتقدير الواجب : وفيه خطأ من يظنون فى طبيعة الإسلام النقص والإهمال .

(١٠) التدين : وفيه حقيقة الإيمان بالله والفضيلة والجزاء .

وثانيهما : إثبات أن من الخير للانسانية كلها أن يتجه المسلمون إلى العودة لدينهم وأن ذلك سيكون أكبر دعائم السلام على الأرض وأن الدافع إلى ذلك ليس التعصب الأعمى ، ولكن الاقتناع التام بفضل ما جاء به الإسلام وانطباقه تمام الانطباق على أرقى ما كشف عنه التفكير العصرى السليم من قواعد الاجتماع الصالحة ودعائم نظمه الثابتة والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

— ٢ —

إعلان الأخوة الإنسانية
والتبشير بالفكرة العالمية *

جاء الإسلام الحنيف يعلن الأخوة الإنسانية ويبشر بالدعوة إلى العالمية ويبطل كل عصبية ويسلك إلى تحقيق هذه الدعوة الكريمة السامية كل السبل النظرية والعملية .

تقرير وحدة الجنس والنسب :

فقد قرر وحدة الجنس والنسب للبشر جميعاً « فالناس لآدم ولا فضل

(*) نشرت بالعدد الثالث من مجلة الشهاب الصادر فى غرة ربيع الأول سنة ١٣٦٧ (يناير سنة ١٩٤٨) .

لعربى على عجمى ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى » وحكمة التقسيم إلى شعوب وقبائل إنما هى التعارف لا التخالف ، والتعاون لا التخاذل ، والتفاضل بالتقوى والأعمال الصالحة التى تعود بالخير على المجموع والأفراد والله رب الجميع يرقب هذه الأخوة ويرعاها ويطالب عبـــاده جميعاً بتقريرها ورعايتها والشعور بحقوقها والسير فى حدودها .

ويعلن القرآن الكريم هذه المعاني جميعاً فى بيان ووضوح فيقول : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تسألون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً » فاتحة سورة النساء ، ويقول « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » سورة الحجرات آية ١٣ ويقول النبى محمد صلى الله عليه وسلم فى أشهر خطبه فى حجة الوداع « إن الله قدأذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعظمها بالآباء والأجداد . الناس لآدم ، وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى » ويقول : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » رواه أبو داود .

وبهذا التقرير قضى الإسلام تماماً على التعصب للأجناس أو الألوان فى الوقت الذى لا تزال فيه الأمم المتحضرة من أوربا وأمريكا تقيم كل وزن لذلك . وتخصص أماكن يغشاها البيض ويحرم منها السود حتى فى معابد الله ، وتضع القوائم الطويلة للتفريق بين الأجناس الآرية والسامية ، وتدعى كل أمة أن جنسها فوق الجميع .

تقرير وحدة الدين :

وقرر الإسلام وحدة الدين فى أصوله العامة وأن شريعة الله تبارك وتعالى للناس تقوم على قواعد ثابتة من الإيمان والعمل الصالح والإخاء . وأن الأنبياء جميعاً مبلغون عن الله تبارك وتعالى . وأن الكتب السماوية جميعاً من وحيه وأن المؤمنون جميعاً فى أية أمة كانوا هم عباده الصادقون الفائزون فى الدنيا والآخرة . وأن الفرقة فى الدين والخصومة باسمه إثم يتنافى مع أصوله وقواعده . وأن واجب البشرية جميعاً أن تتدين وأن تتوحد بالدين ، وأن ذلك هو الدين القيم وفطرة الله التى فطر الناس عليها ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» سورة الشورى آية ١٣ ويقول القرآن الكريم مخاطباً النبى محمد صلى الله عليه وسلم « فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير » الشورى آية ١٥ ويقول النبى محمد صلى الله عليه وسلم مصوراً هذا المعنى أبدع تصوير « مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين » أخرجه الشيخان .

وسلك الإسلام إلى هذه الوحدة مسلكا عجيباً فالمسلم يجب عليه أن يؤمن بكل نبى سبق ويصدق بكل كتاب نزل . ويحترم كل شريعة مضت . ويثنى بالخير على كل أمة من المؤمنين خلت ، والقرآن يفترض ذلك ويعلنه ويأمر

به النبي وأصحابه « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وماأنزل إلى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » سورة البقرة الآية ١٣٦ ثم يقفى على ذلك بأن هـــذه هى سبيل الوحدة ، وأن أهل الأديان الأخرى إذا آمنوا كهذا الإيمان فقد اهتدوا إليها وإن لم يؤمنوا به فسيظلون فى شقاق وخلاف وأن أمرهم بعد ذلك إلى الله فيقول « فإن آمنوا بمثل ما أمنتم به فقد أهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » سورة البقرة آية ١٣٧ .

ويدعم هذه الوحدة بين المتدينين والمؤمنين على أساسين واضحين مسلمين لا يجادل فيهما إلا مكابر : أولهما اعتبار ملة ابراهيم عليه السلام أساساً للدين وابراهيم ولا شك وهو مرجع الأنبياء الثلاثة الذين عرفت رسالاتهم وهم : موسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً وثانيهما تجريد الدين من أغراض البشر وأهوائهم والارتفاع بنسبته إلى الله وحده فتقرأ فى سورة البقرة قول الله تعالى : « ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » ، إلى قوله تعالى « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ، قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولـكم أعمالـكم ونحن له مخلصون » ثم إلى قوله تعالى : « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولـكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » الآيات ١٣٠ — ١٤١ .

إن القرآن يثنى على الأنبياء جميعاً فموسى نبى كريم « وكان عنـد الله وجيهاً » سورة الأحزاب ٦٩ وعيسى عليه السلام « رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » سورة النساء الآية ٧٥ « وجيهاً فى الدنيـا والآخرة

ومن المقربين ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين » سورة آل عمران آية ٤٦ « وأمه صديقة » سورة المائدة الآية ٧٥ أكرمتها الملائكة « وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين» سورة آل عمران الآية ٤٢ .

والتوراة كتاب كريم « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور » المائدة الآية ٤٤ والإنجيل كذلك كتاب كريم فيه هدى ونور وموعظة « وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين » المائدة الآية ٤٦ وهما والقرآن معهما مصابيح الهداية للناس « نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدىً للناس وأنزل الفرقان» سورة آل عمران الآية ٤ وبنو إسرائيل أمة موسى أمة كريمة مفضلة ما استقامت وآمنت « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين » سورة البقرة الآية ١٢٢ وأمة عيسى عليه السلام أمة فاضلة طيبة ما أخلصت وعملت « وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية » سورة الحديد الآية ٢٧ .

والتعامل بين المسلمين وبين غيرهم من أهل العقائد والأديان إنما يقوم على أساس المصلحة الاجتماعية والخير الإنسانى « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » سورة الممتحنة الآية ٩ .

والجدال يكون بالتى هى أحسن إلا للذين ظلموا وأساسه التذكير بروابط

الرسالة السماوية ووحدة العقيدة الإيمانية « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » سورة العنكبوت آية ٤٦ .

وبذلك قضى الإسلام على كل مواد الفرقة والخلاف والحقد والبغضاء والخصومة بين المؤمنين من أى دين كانوا . ولفتهم جميعاً إلى وجوب التجمع حول « شريعة الإسلام » ونبذ كل ما من شأنه العداوة والخصام بين بنى الإنسان . « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » سورة البقرة الآية ٦٢ .

فإن أبى الناس أن يفترقوا ويختلفوا ويحتكموا إلى أهوائهم باسم الدين فأن الإسلام وبنى الإسلام وشريعة الإسلام الإنسانية العامة منهم براء « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » الأنعام الآيات ١٥٩ — ١٦٣ .

تقرير وحدة الرسالة :

ولهذا جاء النبى « محمد » عليه الصلاة والسلام رسولاً عالمياً لا رسولاً إقليمياً وأعلن القرآن الكريم هذه العالمية فى آيات كثيرة فقال « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » سورة الفرقان ١ وقال

« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » سورة سبأ ٢٨ وقال « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » سورة الأعراف الآية ١٥٨ ومن هنا كانت رسالته أيضاً ختام الرسالات فلا رسالة تعقبها أو تنسخها ولا نبى بعده « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » سورة الأحزاب آية ٤ ومن هنا كذلك كانت معجزته الخالدة الباقية هذا القرآن الكريم « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » سورة فصلت آية ٤١ و ٤٢ .

ولقد كان الناس يتساءلون من قبل هذا العصر كيف يكون فرد واحد من أمة واحدة رسولا للبشر جميعاً فجاء هذا العصر الذى انمحت فيه المسافات ، وتجمعت فيه أطراف الأرض بهذه المواصلات ، وتشابكت فيه مصالح الأمم والدول والشعوب حتى لكأنها بلد واحد كبير ، لا ينفك جانب منه عن الجانب الآخر فى قليل ولا فى كثير وانطلقت فى أجواز الفضاء أنباء الشرق يعلمها ساعة حدوثها الغرب ، وأنباء الغرب يستمع إليها لحظة وقوعها الشرق . وتركزت آمال المصلحين اليوم فى « العالم الواحد » و « النظام الواحد » و « الضمان الاجتماعى » و « السلام العالمى » فكان ذلك آية كبرى . ومعجزة أخرى لنبى الإسلام وشريعة الإسلام وصدق الله العظيم « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » سورة الشورى الآية ٥٣ .

وحدة الشعائر :

وقد كان الإسلام « عملياً » كعادته فلم يقف عند حد تقرير الأصول النظرية لهذه الوحدة الإنسانية ولكنه رسم وسائل التطبيق ، وقرر الشعائر والشرائع التى يتأكد بها هذا المعنى فى النفوس ، وتثبت دعائمه فى المجتمعات ، وهذا هو الفرق بين الرسالات الفلسفية والرسالات الإصلاحية أو بين الفيلسوف والمصلح فالفيلسوف يقرر النظريات والمصلح يرسم قواعد التطبيق ويشرف بنفسه على تمامه ، ومن هنا كان الإسلام نظرياً وعملياً معاً لأنه رسالة الإصلاح الشامل الخالد ، وعلى هذا الأساس قرر الشعائر والشرائع التى يتحقق بالعمل بها ما دعا إليه من إنسانية عالمية وأخوة حقيقية بين البشر على اختلاف أوطانهم وأجناسهم وألوانهم . ومن ذلك :

الصلاة : فعلى المؤمنين أن يصرفوا وجوههم وقلوبهم وأفئدتهم كل يوم خمس مرات على الأقل إلى « الكعبة » التى بناها ابراهيم أبو الأنبياء عليه الصلاة والسلام ، وأن يشعر كل منهم بما يحيط بهذا « الرمز الكريم » من معانى الأخوة والوحدة بين الناس جميعاً ، كما أن طواف الطائفين بهذه الكعبة المشرفة إن هو إلا توكيد لهذا الشعور عملياً كذلك ، ويتهز بعض الذين لا يعلمون الحكمة البالغة والنظرة السامية فى هذا التشريع الحكيم هذه الفرصة فيغمزون الإسلام بأنه لا زال متأثراً ببقية من وثنية العرب ، وأن الكعبة والطواف من حولها ، والحجر الأسود واستلامه وما يحيط بذلك من معانى التقديس والتكريم إن هو إلا مظهر من مظاهر هذا التأثر . وهذا القول بعيد عن الصحة عار عن الصواب ، فالمسلم الذى يطوف بالكعبة أو يستلم الحجر يعتقد اعتقاداً جازماً أنها جميعاً أحجار لا تضر ولا تنفع ولكنه إنما

يقدس فيها هـــذا المعنى الرمزى البديع : معنى الأخوة الإنسانية الشاملة ، والوحدة العالمية الجامعة . ويذكر فى ذلك قول الله العلى الـكبير « جعل الله الـكعبة البيت الحرام قياماً للناس » سورة المائدة الآية ٩٧ والرمزية هى اللغة الوحيدة لتمثيل المعانى الدقيقة والمشاعر النبيلة التى لا يمكن أن تصورها الألفاظ أو تجلوها العبارات ، والذى يعظم علم وطنه يعلم أنه فى ذاته قطعة نسيج لا قيمة لها مادياً ولـكنه يشعر كذلك أنها ترمز إلى كل معانى المجد والسمو التى يعتز بها وطنه . وإنها تصور أدق المشاعر فى وطنيته . فهو يحيي هذا العلم ويعظمه ويحترمه ويكرمه لهذه المعاني التى تجمعت جميعاً وتمثلت فيه . والـكعبة المشرفة علم الله المركوز فى أرضـــه ليمثل به للناس أوضح معانى أخوتهم وليرمز به إلى أقدس مظاهر وحدتهم وإنما كانت بناء ليكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً . ومن أجل الجميل أن يقوم على رفع قواعد هذا البناء ابراهيم الخليل أبو الأنبياء « وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » البقرة الآية ١٢٧ ..

وما الحجر الأسود إلا موضع الابتداء ونقطة التميز فى هذا البناء ، وعنده تكون البيعة لرب الأرض والسماء على الإيمان والتصديق والعمل والوفاء . اللهم إيماناً بك لا بالحجر ، وتصديقاً بكتابك لا بالخرافة ، ووفاءً بعهدك وهو التوحيد الخالص لا الشرك ، وإتباعاً لسنة نبيك صلى الله عليه وسلم محطم الأصنام .

فأين هذه المعانى الرمزية العلوية من تلك المظاهر الوثنية الخرافية ؟ إن الـكعبة المشرفة رمز قائم خالد ، ركز الإسلام من حوله أخلد وأقدس وأسمى معانى الإنسانية العالمية والأخوة بين بنى البشر جميعاً « وإذ جعلنا البيت مثابة

للناس وأمناً واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا إلى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » سورة البقرة الآية ١٢٥ .

واللغة : وكما وحد الإسلام القبلة فقد وحد اللغة وأعلن أن العربية هى لسان القرآن « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » سورة الزخرف الآية ٣ وأن القرآن هو لسان المؤمنين وأن دعوة الإيمان دعوة موجهة إلى العالمين ، ويقرر علماء الاجتماع أن اللغة أقوى الروابط بين الأمم والشعوب ، وأقرب وسائل التقريب والتوحيد بينها . وهى نسب من لا نسب له . وقد أدرك الإسلام هذه الحقيقة ففرض العربية فرضاً على المؤمنين فى صلواتهم وعباداتهم ومنح الجنسية العربية لكل من نطق بلغة العرب وجرى لسانه بها . واعتبر أن العربية هى اللسان . روى الحافظ ابن عساكر قال جاء قيس ابن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى فقال : هؤلاء الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل (يعنى النبى صلى الله عليه وسلم) فما بال هذا وهذا ؟ (مشيراً إلى غير العرب من الجالسين) فقام إليه معاذ بن جبل رضى الله عنه فأخذ بتلابيبه ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره بمقاله فقام النبى صلى الله عليه وسلم مغضباً يجر رداءه حتى أتى المسجد ثم نودى الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس فخطبهم قائلا « يا أيها الناس إن الرب واحد ، وإن الدين واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هى اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربى » .

وأى تشجيع أعظم من هذا على تعلم لغة العرب وتعميمها بين الناس لتكون هى « الاسبرانتو » العالمى الذى يربط البشرية بأقوى روابطها ،

وهى اللسان . وقد يقال إن ذلك خيال لا يتحقق والجواب أنه خيال حققته قوة أصحابه الروحية والحسية من قبل وتحققه من بعد ، ولا خيال فى الحقيقة إلا مع الضعف ، وحقائق اليوم أحلام الأمس وأحلام اليوم حقائق الغد . ولا تعاب الطريقة المثلى إذا هجرها الناس وهذه هى الطريقة للوحدة « وكل من سار على الدرب وصل » .

الأذان : وتستمع إلى الأذان وهو الصوت العالى الذى تنطلق به حناجر المؤذنين فى الصباح والمساء وعشياً وعند الظهيرة ومع الغروب : الله أكبر الله أكبر . أشهد ألا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله . حى على الصلاة . حى على الفلاح . الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله ، يكررها المؤذن أعدادها المعروفة أو هو يقول حى على خير العمل كما فى بعض الروايات . فهل ترى فى هذا النداء دعوة إلى عصبية جنسية أو هتافاً بنصرة طائفية ؟ لا شىء إلا تمجيد الله والحث على الخير والفلاح والطاعة والصلاة والإرشاد إلى الأسوة الحسنة فى محمد رسول الله .

الحقوق والواجبات ومظاهر العبادات : والمساواة التامة هى شعار الإسلام فى الحقوق والواجبات ومظاهر العبادات . فالجنس الإنسانى مكرم كله مفضل على كثير من المخلوقات « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » سورة الإسراء الآية ٧٠ .

والناس جميعاً مخاطبون بهذه الدعوة الإسلامية وكثيراً ما يستفتح الخطاب فى القرآن الكريم بيأيها الناس إشارة إلى عموم هذه الرسالة وتسويتها بين الناس فى الحقوق والواجبات . والحقوق الروحية فضلا عن الحقوق المدنية والسياسية والفردية والاجتماعية والاقتصادية مقررة للجميع على السواء ، فما من

شعب إلا بعث إليه رسول « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » سورة فاطر الآية ٢٤ . ومظاهر العبادات وطرق أدائها مشتركة بين الجميع يؤدونها على قدم المساواة ، فهم فى الصلاة كالبنيان المرصوص ، وهم فى الحج قلب واحد يفدون من كل فج عميق ، وهم فى الجهاد صف لا يتخلف عنه إلا أعرج أو مريض أو أعمى أو معذور ، وهم فى كل معنى من هذه المعانى كأسنان المشط لا سيد ولا مسود « إنما المؤمنون إخوة » سورة الحجرات الآية ١٠ وقل مثل ذلك فى جميع الحقوق والواجبات والفرائض والعبادات التى جاء بها هذا الإسلام .

تقرير معانى الرحمة والحب والإيثار والإحسان :

ولقد دعم الإسلام هذه المعانى النظرية والمراسم العملية بيث أفضل المشاعر الإنسانية فى النفوس من حب الخير للناس جميعاً والترغيب فى الإيثار ولو مع الحاجة « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » سورة الحشر الآية ٩ والإحسان فى كل شىء حتى فى القتل « وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » سورة البقرة الآية ١٩٥ « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » سورة الكهف الآية ٣٠ « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » سورة النحل الآية ٩٠ .

وتقرير عواطف الرحمة حتى مع الحيوان فأبواب الجنة تفتح لرجل سقى كلباً ، وتبتلع الجحيم إمرأة لأنها حبست هرة بغير طعام كما جاء ذلك وغيره من كثير من مثله فى أحاديث النبى محمد صلى الله عليه وسلم حتى استغرب أصحابه وقالوا : وإن لنا فى البهائم لأجراً يا رسول الله ؟ قال : « نعم فى كل ذات كبد رطبة أجر » رواه البخارى ، ولا شك أن هذه المشاعر هى التى تفيض على

صاحبها أفضل معانى الإنسانية وتوجهه إلى تقدير قيمة الأخوة العالمية.

شيوع هذه الإنسانية عملياً فى المجتمع الإسلامى :

وإن التاريخ ليحدثنا أن المجتمع الإسلامى سعد بتحقيق هذه المعانى فى كل عصر من العصور التى ازدهرت فيها دعوة الإسلام وطبقها المؤمنون فيها تطبيقاً صحيحاً ، ففى عهد النبوة كان سلمان الفارسى إلى جانب صهيب الرومى إلى جوار بلال الحبشى ومعهم فى نسق واحد أبو بكر القرشى تضمهم جميعاً أخوة الإسلام « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » سورة آل عمران الآية ١٠٣ ولم تعرف التعصبات الجنسية إلا يوم ضعف شعور المسلمين بسلطان التوجيه الإسلامى الصحيح واجتاحتهم شياطين التقليد فانحرفوا عن هذا الصراط المستقيم.

عالم اليوم :

ولقد بشر زعماء العالم إبان محنتهم فى الحرب الماضية بهذه الإنسانية العالمية وهتفوا بالعالم الواحد السعيد الذى تسوده الطمأنينة والعدالة والحرية والوئام . فهل وصل إلى شىء من ذلك ، أو حاولوا أن يصلوا إليه فيما قرروا من مؤتمرات وعقدوا من اجتماعات ؟ وهل استطاعت هيئة الأمم المتحدة أن تسوى فى الحقوق بين أبناء الوطن الواحد فى أفريقيا الجنوبية ، أو أن تحمل الأمريكان على ترك التفاضل بالألوان ؟ لا شىء من هذا ، ولن يكون إلا إذا تطهرت النفوس بماء الوحى العذب الطهور ، وسقيت من معين الإيمان ، وأخلصت للاسلام دين الأخوة والوحدة والإنسانية والسلام « إن فى هذا لبلاغاً لقوم عابدين وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

— ٣ —

السلام

وحكمة مشروعية القتال فى الإسلام

الإسلام شريعة السلام ودين المرحمة ما فى ذلك شك لا يخالف فى هذا إلا جاهل بأحكامه أو حاقد على نظامه أو مكابر لا يقتنع بدليل ولا يسلم ببرهان .

اسم الإسلام نفسه مشتق من صميم هذه المادة مادة السلام .

والمؤمنون بهذا الدين لم يجدوا لأنفسهم اسماً أفضل من أن يكونوا المسلمين « ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس » سورة الحج الآية ٧٨ .

وحقيقة هذا الدين ولبه الإسلام لرب العالمين « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » سورة البقرة الآية ١١٢ « إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين » سورة البقرة الآية ١٣١ « وأمرنا لنسلم لرب العالمين » سورة الأنعام الآية ٧١ .

وتحية أهل الإسلام فيما بينهم السلام عليكم ورحمة الله وبركاته — وختام الصلاة عندهم سلام على اليمين وسلام على اليسار وسلام فى الأمام إن كانوا يصلون خلف إمام كأنهم يبدأون أهل الدنيا من كل نواحيها بالسلام بعد أن فارقوها بخواطرهم لحظات انصرفوا فيها لمناجاة الله الملك العلام .

(*) نشرت بالعددين الرابع والخامس من مجلة الشهاب الصادرين فى غرة ربيع الآخر ١٣٦٧ (فبراير سنة ١٩٤٨) وغرة جمادى الأولى ١٣٦٧ (مارس سنة ١٩٤٨) على التعاقب .

وقد نزل القرآن الكريم فى ليلة كلها سلام تحف به ملائكة السلام « إنا أنزلناه فى ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هى حتى مطلع الفجر » سورة القدر .

وأفضل ما يلقى الله به عباده تحية السلام « تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً » سورة الأحزاب الآية ٤٤ .

وخير ما يستقبل الملائكة به الصالحين من عباد الله فى جنة السلام « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » سورة الرعد الآية ٢٤ والجنة نفسها اسمها دار السلام « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون » سورة الأنعام الآية ١٢٧ « والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » سورة يونس الآية ٢٥

والله تبارك وتعالى إسمه السلام « هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام » سورة الحشر الآية ٢٣ .

ولن يتأخر المسلم عن الاستجابة لدعوة السلام ولن يردها أبداً « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين » سورة الأنفال الآية ٦٢ « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيره » سورة النساء الآية ٦٢ .

وليست فى الدنيا شريعة دينية ولا نظام اجتماعى فرض السلام تدريباً عملياً واعتبره شعيرة من شعائره وركناً من أركانه كما فرض الإسلام رياضة النفس على السلام بالإحرام فى الحج ، فمتى أهلّ المسلم به فقد حرم عليه من

تلك اللحظة أن يقص ظفراً أو يحلق شعراً أو يقطع نباتاً أو يعضد شجراً أو يقتل حيواناً أو يرمى صيداً أو يؤذى أحداً بيد أو لسان حتى لو وجد قاتل أبيه وجهاً لوجه لما استطاع أن يمسه بشىء « فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج » فهو بهذا الإحرام قد أصبح سلماً لنفسه سلماً لغيره من إنسان أو حيوان أو نبات .

والإسلام دين الرحمة .

فهى قرين السلام فى تحية المسلمين .

ونبى الإسلام إنما أرسله الله رحمة للعالمين .

وشعار المسلم الذى يردده قبل كل قول أو عمل « بسم الله الرحمن الرحيم »

والوصية بين المؤمنين الصبر والمرحمة « ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة » سورة البلد الآية ١٧ .

وآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول محمد (ص) وأعماله وتصرفاته كلها تدل على سمو منزلة الرحمة بين الأخلاق التى يأمر بها هذا الدين .

لقد فتحت أبواب الجنة وشملت مغفرة الله تعالى ومنته رجلا سقى كلباً يلهث الثرى من العطش . روى البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج وإذا كلب يلهث الثرى من العطش فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله تعالى له فغفر له . قالوا يا رسول الله : وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ قال : فى كل كبد رطبة أجر » .

وفتحت أبواب النار لامرأة حبست هرة وقست عليها . روى البخارى

ومسلم أن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » .

ومن قبل أن تنشأ جمعيات الرفق بالحيوان فى أوربا أو غيرها ، كان الرفق بالحيوان شعار الدين الإسلامى ووصية النبى صلى الله عليه وسلم لكل مسلم . عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تتخذوا ظهور دوابكم منابر إنما سخرها الله لكم لتبلغوا إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس وجعل لكم الأرض فعليها فاقضوا حاجتكم » . رواه أبو داود .

وعن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه رضى الله عنه قال : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فرأينا حمرة معها فرخان لها فأخذناها فجاءت الحمرة تعرش فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من فجع هذه بولدها ، ردوا ولدها إليها . ورأى قرية نمل قد أحرقناها فقال : من أحرق هذه ؟ قلنا نحن ! قال : إنه لا ينبغى أن يعذب بالنار إلا رب النار » أخرجه أبو داود أيضاً .

وروى ابن عبد الحكم فى سيرة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه نهى عن ركض الفرس إلا لحاجة وأنه كتب إلى صاحب السكك ألا يحملوا أحداً بلجام ثقيل ولا ينخس بمقرعة فى أسفلها حديدة — وكتب إلى حيان بمصر إنه بلغنى أن بمصر إبلاً تقالات يحمل على البعير منها ألف رطل فإذا أتاك كتابى هذا فلا أعرفن أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل .

وإنما سمى الفسطاط (مصر القديمة) بذلك لأن فسطاط عمرو بن العاص

حين الفتح اتخذت من أعلاه حمامة عشاً لها فلم يشأ عمرو أن يهيجها بتقويضه فتركه وتتابع العمران من حوله فكانت مدينة الفسطاط .

وما ذلك كله إلا أثراً من آثار الرحمة التى يشيعها الإسلام فى نفوس المؤمنين ، فهو ولا شك دين الرحمة ، وهو ولا شك دين السلام .

* * *

وإذا كان الإسلام دين السلام ودين الرحمة فما موقفه من فكرة الحرب والقتال والجهاد ؟ وهل انتشر بالسيف كما يقول عنه كثير من خصومه الذين لم يعرفوه أو تعمدوا أن يتجاهلوه ؟ وهل انفرد دون غيره من الأديان بمشروعية القتال ؟ هذه هى رؤوس الموضوعات التى سنعالجها مختصرة فى هذه الكلمات التالية :

الإسلام والحرب :

الحرب ضرورة اجتماعية : القاعدة الأساسية التى وضعها الإسلام للحياة هى ولا شك الطمأنينة والسلام والاستقرار ، ولكن الإسلام مع هذا دين يواجه الواقع ولا يفر منه ، وما دامت فى الدنيا نفوس لها أهواء ونوازع ومطامع ، وما دام هناك هذا الناموس الذى يطبق على الأفراد والجماعات على السواء ، ناموس تنازع البقاء ، فلا بد إذن من الاشتباك والحرب ، وحين تكون الحرب لردع المعتدى وكف الظالم ونصرة الحق والانتصاف للمظلوم تكون فضيلة من الفضائل وتنتج الخير والبركة والسمو للناس ، وحين تكون تحيزاً وفساداً فى الأرض واعتداء على الضعفاء تكون رذيلة اجتماعية وتنتج السوء والشر والفساد فى الناس . ومن هنا جاء الإسلام يقرر هذا الواقع ويصوره ، فيقول القرآن الكريم : « ولولا دفع الله الناس

بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » سورة البقرة الآية ٢٥١ . كما يقول فى آية أخرى : «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » سورة الحج الآيتان ٤٠ — ٤١ .

وبذلك كانت أولى نظرات الإسلام إلى الحرب أنها ضرورة اجتماعية أو شر لا بد منه إلا لما يرجى من ورائه من خير على حد قول الشاعر العربى :

والشر إن تلقه بالخير ضقت به ذرعاً وإن تلقه بالشر ينحسم
والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا فالحرب أجدى على الدنيا من السلم

أغراض الحرب فى الإسلام :

وفى الوقت الذى يقرر الإسلام فيه هذا الواقع يحرم الحرب ويسمو بها ولا يدعو إليها أو يشجع عليها إلا لهذه الأغراض الأساسية السامية العالية الحقة .

١ — رد العدوان والدفاع عن النفس والأهل والمال والوطن والدين ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم : «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين» سورة البقرة الآية ١٩٠ . وكانت أول آية من آيات القتال نزلت وفيها الإذن به قول الله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » سورة الحج الآية ٤٠ . وفى الآية الثالثة : « ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله . . . إلخ » . وروى مسلم والنسائي عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله

أرأيت إن عدى على مالى ؟ قال : فانشد بالله ، قال : فإن أبوا علىّ ؟ قال : فانشد بالله ، قال : فإن أبوا علىّ ؟ قال : فانشد بالله ، قال فإن أبواعلىّ ؟قال : فقاتل ؛ فإن قُتلت ففى الجنة ، وإن قتلت ففى النار » .

وروى أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن سعد بن زيد رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد ومن قتل دون دينه فهو شهيد ومن قتل دون أهله فهو شهيد » .

وروى البخارى والترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من أريد ماله بغير حق فقاتل فقتل فهو شهيد » .

٢ — تأمين حرية الدين والاعتقاد للمؤمنين الذين يحاول الكافرون أن يفتنوهم عن دينهم وفى ذلك يقول القرآن الكريم « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل » سورة البقرة الآية ٢١٧ . ويقول فى آية أخرى «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » سورة البقرة الآية ١٩٣ .

٣ — حماية الدعوة حتى تبلغ إلى الناس جميعاً ويتحدد موقفهم منها تحديداً واضحاً وذلك أن الإسلام رسالة اجتماعية إصلاحية شاملة تنطوى على أفضل مبادىء الحق والخير والعدل وتوجه إلى الناس جميعاً كما قال الله تبارك وتعالى لنبى الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » فلا بد أن تزول من طريقها كل عقبة تمنع من إبلاغها ولا بد أن يعرف موقف كل فرد وكل أمة بعد هذا البلاغ ، وعلى ضوء هذا

التحديد تكون معاملة الإسلام وأهله للناس فالمؤمنون إخوانهم والمعاهدون لهم عهدهم وأهل الذمة يوفى لهم بذمتهم والأعداء المحاربون ومن تخشى خيانتهم ينبذ إليهم فإن عدلوا عن خصومتهم فيها وإلا حوربوا جزاء اعتدائهم حتى لا يكونوا عقبة فى طريق دعوة الحق أو مصدر تهديد وخيانة لأهلها لا إكراهاً لهم على قبول الدعوة ولا محاولة لكسب إيمانهم بالقوة «لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى» البقرة الآية ٢٥٦ ، والآيات والأحاديث ناطقة بذلك مفصلة إياه فى مثل قول الله تعالى « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء » الأنفال الآية ٥٨ ، « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نوتيه أجراً عظيما » سورة النساء الآية ٧٤ ، وقوله تعالى « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » سورة التوبة الآية ٢٩ وقوله تعالى « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا » سورة النساء الآية ٧٦ ، وروى البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله (ص) « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله » .

٤ — تأديب ناكثى العهد من المعاهدين أو الفئة الباغية على جماعة المؤمنين التى تتمرد على أمر الله وتأبى حكم العدل والإصلاح وفى ذلك يقول القرآن الكريم « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة

الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة » سورة التوبة الآيتان ١٢ و ١٣ ويقول « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » سورة الحجرات الآية ٩ .

٥ — إغاثة المظلومين من المؤمنين أينما كانوا والانتصار لهم من الظالمين وفى ذلك يقول القرآن الكريم « والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير » سورة الأنفال الآية ٧٢ .

ج) تحريم الحرب لغير ذلك من الأغراض : فكل ماسوى هذه الأغراض الإنسانية الإصلاحية الحقة من المقاصد المادية أو الشخصية أو النفعية فإن الإسلام لايجيز الحرب من أجلها بحال من الأحوال وذلك واضح كل الوضوح إضافة الإسلام القتال أو الجهاد دائماً إلى سبيل الله فلا ترد واحدة من هاتين الكلمتين فى بحث من البحوث الإسلامية إلا مقرونة بهذا السبيل . على أن القرآن الكريم قد صرح بتحريم كل قتال لغير هذه الأغراض المشروعة وأكدت هذا التحريم أحاديث النبى محمد وسجل التاريخ ذلك لأصحابه الذين لم يريدوا بقتالهم شيئاً أبداً إلا وجه الله وتحقيق المقاصد المتقدمة كلها أو بعضها وفى ذلك يقول القرآن الكريم « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيراً » سورة النساء الآية ٩٤

ويقول « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » سورة الأنفال الآيتان ٦٧ ، ٦٨ .

وأخرج الخمسة عن أبى موسى رضى الله عنه قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله .

وأخرج أبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا قال يارسول الله رجل يريد الجهاد فى سبيل الله وهو يبتغى عرضاً من الدنيا فقال لا أجر له فأعاد عليه ثلاثاً كل ذلك يقول لا أجر له .

ولقد تأثر أصحاب النبى حتى الأعراب منهم بهذا السمو فى الغرض من القتال حتى روى النسائى عن شداد بن الهاد رضى الله عنه أن رجلا من الأعراب جاء فآمن بالنبى ثم قال أهاجر معك فأوصى النبى به بعض أصحابه فكانت غزاة غنم النبى فيها شيئاً فقسم وقسم له فقال ما هذا فقال قسمته لك قال ماعلى هذا اتبعتك ولكنى اتبعتك على أن أرمى إلى ههنا وأشار بيده إلى حلقه بسهم فأموت فأدخل الجنة فقال إن تصدق الله يصدقك فلبثوا قليلا ثم نهضوا فى قتال العدو فأتى به النبى محمولا قد أصابه سهم حيث أشار فقال النبى أهو هو قالوا نعم قال صدق الله فصدقه ثم كفن فى جبة النبى ثم قدمه فصلى عليه فكان مما ظهر من صلاته اللهم إن هذا عبدك خرج مهاجراً فى سبيلك فقتل شهيداً وأنا شهيد على ذلك .

وصحف التاريخ فياضة بمثل هذه الزهادة منهم فى عرض الحياة الدنيا وغنائم

الفتح وأن غرضهم من الجهاد لم يكن شيئاً إلا إعلاء كلمة الله وحماية دعوته فى الناس .

د) إيثار السلم كلما أمكن ذلك والتشجيع عليهـا . فالمسلم لايحارب إلا مكرهاً على القتال بعد استنفاد وسائل المسالمة جميعاً . وحين تلوح بارقة أمل فى السلم يوجب عليه الإسلام أن ينتهزها وألا يدع الفرصة تفلت من يده وعليه أن يعمل على إطفاء نار الحرب ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وفى ذلك يقول القرآن الكريم « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم » سورة الأنفال الآية ٦١ ، وروى أبو داود عن الحارث بن مسلم عن أبيه قال بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سرية فلما بلغنا المغار (أى مكان المغارة) استحثثت فرسى فسبقت أصحابى فتلقانى أهل الحى بالرنين فقلت لهم قولوا لا إله إلا الله تحرزوا فقالوها فلامنى أصحابي وقالوا حرمتنا الغنيمة فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبروه بالذى صنعت فدعانى فحسن لى ماصنعت ثم قال لى « إما إن الله قد كتب لك لكل إنسان منهم كذا وكذا من الأجر وقال أما إنى سأكتب لك بالوصاة بعدى ففعل وختم عليه ودفعه إلى » .

هـ) الرحمة فى الحرب ومراعاة أعلى آدابها الإنسانية : فإذا كانت الحرب ولا بد فإن المسلم يضرب فيها أروع المثل على الرحمة والتفضل ومراعاة أعلى آدابها الإنسانية فاذا رجحت كفة المسلمين على أعدائهم وظهرت الغلبة لهم فان عليهم بحكم القرآن أن يكفوا عن القتل ويكتفوا بالأسر ليمنوا على الأسير بعد ذلك بحريته أو يفتدوا به مثله من أساراهم فيحسنوا إلى إنسانين من عباد الله وفى ذلك يقول القرآن الكريم « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب

الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » سـورة القتال الآية ٤ ، وأما الرق فسيأتى تفصيل الكلام عنه فى بحث آخر ، وحسبنا الآن أن نقول إنه معنى من معانى الرحمة التى شرعها الإسلام فى الحرب فأبدل حكم الإعدام وهو القتل بحكم السجن المؤبد وهو الرق بعد الأسر ثم جعل لهذا السجن بعد ذلك عدة منافذ يستطيع الأسير فيها أن يسترد حريته بكل سهولة ولا يبيح الإسلام الرق بحال من الأحوال إلا فى هذا الموقف الذى تتجسم فيه معانى الرحمة والإحسان .

والمسلم فى قتاله ، لايغدر ولا يفجر ولا يفسد ولا يتلف ولا ينهب مالا ولا يقتل امرأة ولا طفلا ولا شيخاً كبيراً ولا يتبع مدبراً ولا يجهز على جريح ولا يمثل بقتيل ولا يسىء إلى أسير ولا يتعرض لمسالم أو رجل دين ولا يقصد أن يضرب وجهاً أو يقتل صبياً .

أخرج أبو داود عن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعف الناس قتلة أهل الإيمان » .

وأخرج البخارى عن عبدالله بن يزيد الأنصارى قال « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النهبى والمثلة » .

وأخرج الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه » .

وأخرج أبو داود عن أبى يعلى قال غزونا مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فأتى بأربعة أعلاج من العدو فأمر بهم فقتلوا صبراً بالنبل فبلغ ذلك أبا أيوب الأنصارى رضى الله عنه فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن قتل الصبر فوالذى نفسى بيده لو كانت دجاجة ماصبرتها فبلغ ذلك عبد الرحمن فأعتق أربع رقاب .

وأخرج الستة ، إلا النسائى ، عن ابن عمر قال : وجدت امرأة مقتولة فى بعض مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل النساء والصبيان .

وأخرج مسلم وأبو داود والترمذى عن بريدة رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر الأمير على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله تعالى ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال اغزوا باسم الله فى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً .

وكانت هـذه الوصية شعار الخلفاء والأمراء ، يوصون بها دائماً قواد الجيوش حين يبعثون بهم إلى القتال . أوصى أبو بكر أسامة رضى الله عنه فقال « لا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً » ثم قال : اندفعوا باسم الله .

فهل رأت الساحات والميادين أرق من هـذه الأفئدة وألين من هذه القلوب ؟

و) الوفاء بالعهود والمواثيق والشروط : فإذا كانت هدنة وموثق وعهد وصلح وشرط فالإسـلام يشدد فى ملاحظة ذلك والمحافظة على صورته ومعناه أدق المحافظة ويتوعد المخالفين من أبنائه إن غدروا ولم يفوا بأشد الوعيد . والآيات والأحاديث فى ذلك واضحة محكمة لا تدع مجالا لإباحة نقض العهد

بالخيانة فيه وقت القوة وعده قصاصة ورق عند إمكان الخروج عليه بالحيلة ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

« وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيام ما كنتم فيه تختلفون » النحل الآيتان ٩١ ، ٩٢ .

« إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين » التوبة الآية ٤ .

« وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » الإسراء الآية ٣٤ .

وأخرج أبو داود عن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء الصحابة عن آبائهم رضى الله عنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة » .

قال أهل سمرقند لعاملهم سليمان بن أبى السرى : إن قتيبة غدر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا ، وقد أظهر الله العدل والإنصاف فأذن لنا فليفد منا وفد إلى أمير المؤمنين — وهو يومئذ عمر بن عبد العزيز — يشكون ظلامتنا فإن كان لنا حق أعطيناه . فإن بنا إلى ذلك حاجة ، فأذن لهم فوجهوا منهم قوماً إلى عمر ، فلما علم عمر ظلامتهم كتب إلى سليمان يقول له : « إن أهل سمرقند قد شكوا إلى ظلماً أصابهم ، وتحاملا من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم ،

فإذا أتاك كتابى هـذا فأجلس لهم القاضى فلينظر فى أمرهم ، فإن قضى لهم فأخرجهم إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة » . فأجلس لهم سـليمان « جميع بن حاضر » القاضى ، فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء فيكون صلحاً جديداً أو ظفراً عنوة . فقال أهل السند : بل نرضى بما كان ولا نجدد حرباً ، لأن أهل الرأى منهم قالوا : قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم وأمنونا وأمناهم فإن عدنا إلى الحرب لا ندرى لمن يكون الظفر ، وإن لم يكن لنا نكون قد اجتنبنا عداوة فى المنازعة ، فتركوا الأمر على ما كان عليه ورضوا ولم ينازعوا ، وهـذا منتهى المبالغة فى تقصى العدل والوفاء بالعهد .

ز) الجزية : ولسنا نحب أن تمر هذه الكلمات عن موقف الإسلام من الحرب قبل أن نتناول أمر الجزية بكلمة توضح معناها والمقصود منها وتكشف عن حكمتها وكيف أنها أبلغ معانى الإنصاف والمرحمة التى جاء بها الإسلام فنقول :

الجزية ضريبة كالخراج تجبى على الأشخاص لا على الأرض والكلمة عربية مشتقة من الجزاء لأنها تدفع نظير شىء هو الحماية والمنعة ، أو الإعفاء من ضريبة الدم والجندية ، وذهب بعض العلماء إلى أنها فارسيةمعربة وأصلها (كزيت) ومعناها الخراج الذى يستعان به على الحرب . وقال إن كسرى هو أول من وضع الجزية وعلى هـذا فهى نظام فى الضريبة نقله الإسلام عن الفارسية ولم يبتكره .

ولقد قرر الإسلام ضريبة الجزية على غير المسلمين فى البلاد التى يفتحها نظير قيام الجند الإسلامى بحمايتهم وحراسة أوطانهم والدفاع عنها فى الوقت

الذى قرر فيه إعفاءهم من الجندية . فهى (بدل نقدى) لضريبة الدم ، وإنما سلك الإسلام هذه السبيل ولجأ إليها مع غير المسلمين من باب التخفيف عليهم والرحمة بهم وعدم الإحراج لهم حتى لا يلزمهم أن يقاتلوا فى صفوف المسلمين فيتهم بأنه إنما يريد لهم الموت والاستئصال والفناء والتعريض لمخاطر الحرب والقتال ، فهى فى الحقيقة « إمتياز فى صورة ضريبة » وفى الوقت نفسه إحتياط لتنقية صفوف المجاهدين من غير ذوى العقيدة الصحيحة والحماسة المؤمنة البصيرة ، ومقتضى هذا أن غير المسلمين من أبناء البلاد التى تدخل تحت حكم الإسلام إذا دخلوا فى الجند أو تكفلوا أمر الدفاع أسقط الإمام عنهم الجزية . وقد جرى العمل على هذا فعلا فى كثير من البلاد التى فتحها خلفاء الإسلام ، وسجل ذلك قواد الجيوش الإسلامية فى كتب ومعاهدات لازالت مقروءة فى كتب التاريخ الإسلامى ومنها :

١ — كتاب خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا حين دخل الفرات وأوغل فيه وهذا نصه « هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه . إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة فلك الذمة والمنعة (وما منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا) كتب سنة اثنتى عشرة فى صفر » .

٢ — وفى حمص رد الأمراء بأمر أبى عبيدة ما كانوا أخذوه من الجزية من أهلها وما إليها حين جلوا عنها ليتجمعوا لقتال الروم وقالوا لأهل البلاد إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع وإنكم قد اشترطتم أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك الآن وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كان بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم ، فكان جواب أهل هذه البلاد ردكم الله علينا ونصركم عليهم فلو كانوا هم لم

يردوا علينا شيئاً وأخذوا كل شيء ، لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، وكذلك فعل أبوعبيدة نفسه مع دمشق حين كان يتجهز لليرموك .

٣ — كتاب العهد الذى كتبه سويد بن مقرن أحد قواد عمر رضى الله عنهما لرزبان وأهل دهيستان وسائر أهل جرجان ونصه « هذا كتاب سويد بن مقرن لرزبان صول بن رزبان وأهل دهستان وسائر أهل جرجان أن لكم الذمة وعلينا المنعة على أن عليكم من الجزاء فى كل سنة على قدر طاقتكم على كل حال ومن استعنا به منكم فله جزاؤه (أى جزيته) فى معونته عوضاً عن جزائه ، ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومالهم وشرائعهم ولا يغير شيء من ذلك » شهد سواد بن قطبة وهند بن عمر وسماك بن مخرمة وعتبة بن النهاس وكتب فى سنة ١٨ هـ — الطبرى .

٤ — كتاب عتبة بن فرقد أحد عمال عمر بن الخطاب وهذا نصه : « هذا ما أعطى عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل أذربيجان سهلها وجبلها وحواشيها وشعارها وأهل مللها كلهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم على أن يؤدوا جزية على قدر طاقتهم ، ومن حشر منهم فى سنة (أى جند منهم فى سنة) وضع عنه الجزاء تلك السنة ومن أقام فله مثل من أقام من ذلك — الطبرى .

٥ — العهد الذى كان بين سراقة عامل عمر وبين شهر براز وقد كتب به سراقة إلى عمر فأجازه واستحسنه وهذا نصه « هذا ما أعطى سراقة بن عمرو عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شهر براز وسكان أرمينية والأرمن من الأمان . أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وملتهم ألا يضاروا

ولا ينقضوا ، وعلى أرمينية والأبواب الطراء منهم (أى الغرباء) والقناء (أى المقيمون) ومن حولهم فدخل معهم أن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالى صلاحا على أن يوضع الجزاء (أى الجزية) عمن أجاب إلى ذلك ، ومن استغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء فإن حشروا (أى جندوا) وضع ذلك عنهم » شهد عبد الرحمن بن ربيعة وسلمان بن ربيعة وبكير بن عبد الله وكتب مرضى ابن مقرن وشهد — الطبرى .

٦ — وأخيراً أمر الجراجمة فيما ذكره البلاذرى فقال حدثنى مشايخ من أهل انطاكية أن الجراجمة من مدينة على جبل لكام عند معدن الزاج فيما بين بياس وبوقا يقال لها الجرجومة ، وأن أمرهم كان فى استيلاء الروم على الشام وانطاكية إلى بطريك انطاكية ووليها ، فلما قدم أبو عبيدة إلى انطاكية وفتحها لزموا مدينتهم وهموا باللحاق بالروم إذ خافوا على أنفسهم فلم يتنبه المسلمون لهم ولم ينبهوا عليهم . ثم إن أهل انطاكية نقضوا وغدروا فوجه إليهم أبو عبيدة من فتحها ثانية وولاها بعد فتحها حبيب بن مسلمة الفهرى فغزى الجرجومة فلم يقاتله أهلها ولكنهم بدروا بطلب الأمان والصلح فصالحوه على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح فى جبل لكام وألا يؤخذوا بالجزية ودخل من كان فى مدينتهم من تاجر وأجير وتابع من الأنباط وغيرهم وأهل القرى فى هذا الصلح ... ولم يؤخذ الجراجمة بالجزية قط حتى أن بعض العمال فى عهد الواثق العباسى ألزمهم جزية رؤوسهم فرفعوا ذلك إليه فأمر بإسقاطها عنهم .

وبهذا البيان يندفع كل ما يوجه إلى « ضريبة الجزية » من نقد أو اتهام

وتظهر حكمة الإسلام ورحمة الله بعباده فى تشريعاته واضحة لا غموض فيها ولا إبهام .

ح) الحث على دوام الاستعداد وكمال الشجاعة إذا تحتم الجهاد .

فإذا كان ولا بد من الحرب لغرض من الأغراض الإنسانية المشروعة التى سبقت الإشارة إليها ، فإن الإسلام يصرح بأن الجهاد والقتال فريضة على كل مسلم « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » البقرة الآية ٢١٦ .

وهو حينئذ أفضل القربات إلى الله تبارك وتعالى والموت فى ساحاته « شهادة » توجب الإكبار فى الدنيا والجنة فى الآخرة ولا يعفى منه إلا العاجزون عنه وعليهم أن يجهزوا غيرهم إن كانوا قادرين على ذلك وأن يخلفوهم فى أهليهم بخير « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » التوبة الآية ١١١ .

وأحاديث النبى محمد صلى الله عليه وسلم فى ذلك أكثر من أن تحصر وقد باشر هو بنفسه القتال فى أكثر من خمس وعشرين معركة كان فيها مثال الشجاعة والنجدة والبأس حتى قال فارس أصحابه على كرم الله وجهه ، « كنا إذا اشتد البأس وحمى الوطيس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فيكون أدنانا إلى العدو » وكذلك كان أصحابه رضوان الله عليهم يفعلون . ولا يستطيع أحد أن يرى فى هذه الأحكام والأخلاق لمثل

ما شرعت له من مقاصد وأغراض إلا أكرم معانى الفضيلة الإنسانية والجود بالنفس أقصى غاية الجود وأجمل ما يكون الحق إذا استعان بالقوة وأفضل ما تكون القوة إذا أستخدمت للحق بالحق .

(ب) هل انتشرت دعوة الإسلام بالسيف ؟

أولع خصوم الإسلام فى كل عصر وبخاصة فى هذا العصر بتوجيه هذه التهمة إلى الإسلام والإسلام منها براء . فهو لم يكره الناس على الإيمان بالسيف ولم يضعه على رقابهم ليشهدوا بشهادته أو يدينوا بعقيدته فهذه التهمة باطلة من وجوه عدة .

١ — باطلة بشهادة التاريخ الذى يحدثنا بأن النبى محمداً صلى الله عليه وسلم مكث بمكة المكرمة ثلاث عشرة سنة يدعو إلى دينه كان فيها مضطهداً أشد الاضطهاد حتى من أهله وعشيرته وأقرب الناس إليه ومع ذلك فقد احتمل وصبر وصابر وكان يمر على النفر من أصحابه والأسرة من المؤمنين به يعذبون أشد العذاب فلا يزيد على أن يقول لهم « اصبروا آل ياسر إن موعدكم الجنة » ومع هذا فقد آمن بالإسلام السابقون الأولون الثابتون من أبنائه وأبرهم به فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته أعمق الإيمان وآمن الأنصار وهم أهل المدينة بالنبى صلى الله عليه وسلم بمجرد أن تحدث معهم فى الموسم وتوافدوا إليه يبايعونه فى كل عام حتى كانت بيعة العقبة وعلى أثرها كانت الهجرة وكل ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقابل أهل العدوان بسيف ولا عصا ولكن يصبر ويحتسب ويقول اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون وما جاء الإذن بالقتال إلا فى السنة الثانية من الهجرة بعد أن كثر خصوم الإسلام من المشركين واليهود وتألبوا عليه وأخذوا يتحرشون به ويكيدون له فأنزل

الله هذه الآيات المحكمة وفيها أروع صور الإذن بالقتال لأنبل المقاصد والأغراض « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » الحج الآيتان ٣٩ — ٤٠ .

والتاريخ يحدثنا عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم فتحوا البلاد بأخلاقهم وحسن معاملتهم قبل أن يفتحوها بسيوفهم وعدتهم وعددهم ، فلا يتصور أن عدداً قليلا من هؤلاء العرب يثل عرش كسرى ويدك ملك قيصر ويرث هذه الإمبراطوريات الضخمة فى هذا العدد من السنين بمجرد القوة ، ولا يعقل أن ثمانية آلاف جندى يفتحون إقليماً شاسعاً كمصر وينشرون فيها دينهم ولغتهم وآدابهم وثقافتهم وعقيدتهم بالإكراه والجبروت ، ولكن بحسن الأحدوثه وجميل العمل ، وها نحن قد رأينا فيما تقدم كيف أن كثيراً من أهل هذه البلاد كانوا يتمنون عودة العرب إليهم بعد جلائهم عنهم فكيف يقال بعد هذا إن الإسلام قام على السيف وانتشر بالسيف .

٢ — وباطلة بآيات القرآن الكريم التى تقرر حرية العقيدة وتقول فى وضوح وصراحة « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » سورة البقرة الآية ٢٥٦ كما تقول «وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا » الكهف الآية

٢٩ كما يقول « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لايعلمون » التوبة الآية ٦ فهو يلزم المؤمنين إن استجار بهم أحد المشركين أن يبلغوه الدعوة ويوضحوا له مقاصد الإسلام ثم يحرسوه حتى يصل إلى مأمنه ويتركوه ليسلم عن رغبة واقتناع لاعن خوف ورهبة وإكراه .

٣ — وباطلة لأن قواعد الإسلام وما جرى عليه العمل به منها تأباها كل الإباء فأساس الإيمان فى الإسلام الفكر والنظر والإطمئنان القلبى « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » الحجرات الآية ١٤ وأساس المؤاخذة فى الإسلام بلوغ الدعوة على وجه يدعو إلى النظر ، والتقليد فى الإيمان ليس أساساً صحيحاً له فضلا عن الإكراه عليه حتى قال بعض العلماء المتأخرين فى منظومة فنية .

إذ كل من قلد فى التوحيد إيمانه لم يخل من ترديد

وقول المكره فى الإسلام مردود عليه ولا يؤاخذ على عمله ، فالدين الذى يعتبر العقل والحرية أساساً للاعتقاد والمسئولية لايمكن أن يقال فيه إنه يقوم على السيف وينتشر به، وإن كان قد شرع الحرب والقتال لما تقدم من الأغراض التى لا يعترض عليها إلا واهم أو مكابر . وعلامة الإيمان الحق الإطمئنان إليه ، « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » الرعد الآيتان ٢٨و٢٩ .

هل الاسلام وحده هو الذى أوصى بالسيف لحماية الحق :

وليس الإسلام وحده هو الذى أشار إلى القتال والحرب والجهاد كوسيلة لحماية الحق ، بل إن الشرائع السابقة واللاحقة كلها جاءت بذلك .

فأسفار التوراة التى يتداولها اليهود اليوم طافحة بأنباء القتال والجهاد والحرب والتخريب والتدمير والهلاك والسبى ، وهى تقرر شريعة القتال والحرب ولكن فى أبشع صورها فقد جاء فى سفر التثنية فى الإصحاح العشرين منه عدد ١٠ وما بعده مايأتى بنصه « حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك بالتسخير ويستعبد ذلك ، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل مافى المدينة فتغنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك ، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تبقى منها نسمة ما بل تحرمها تحريما — الحيثيين والأموريين والكنعانيين والفيرزيين والحويين واليوسيين كما أمرك الرب إلهك » .

وفى إنجيل متى المتداول بأيدى المسيحيين فى الإصحاح العاشر عدد ٢٥ وما بعده يقول « لاتظنوا أنى جئت لألقى سلاماً على الأرض بل سيفاً فانى جئت لأفرق الإنسان ضد إبنه والإبن ضد أبيه والكنة ضد حماتها .. وأعداء الإنسان أهل بيته ، من أحب أباً أو أماً أكثر منى فلا يستحقنى ، ومن أحب ابناً أو ابنة أكثر منى فلا يستحقنى ، ومن لايأخذ صليبه ويتبعنى فلا يستحقنى ، من وجد حياته يضيعها ، ومن أضاع حياته من أجلى يجدها » .

والقانون الدولى العصرى قد اعترف بالظروف والأحوال التى تشرع فيها الحرب ووضع لها قواعدها ونظمها .

وما جاء به الإسلام فى هذا الباب أفضل وأدق وأرحم وأبر بالسلام من كل هذا ، فلماذا تتوجه إليه الشبهات وليس غيره سبيلا إلى السلام ، « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النـور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » سورة المائدة الآية ١٦ .

خطوات الاسلام وما وضع من ضمانات لاقرار السلام :

وفى وسعنا بعد هذه النظرات أن نقول : إن الإسلام كان أول وأكمل تشريع خطا فى سبيل إقرار السلام العالمى أوسع الخطوات ، ورسم لاستقراره أو فى الضمانات التى لو أخذت الأمم بها ، وسلك الحكام والزعماء والساسة نهج سبيلها لأراحوا واستراحوا ومن ذلك :

١ — تقديس معنى الأخاء بين الناس والقضاء على روح التعصب وقد تقدم موقف الإسلام من ذلك فى الفصل السابق .

٢ — الإشارة بفضل السلام وطبع النفوس بروح التسامح الكريم وقد تقدم فى أول هذا الفصل موقف الإسلام فى ذلك مع افتراض الوفاء وتحريم الغدر ونقض العهود والمواثيق .

٣ — حصر فكرة الحروب فى أضيق الحدود ، وتحريم العدوان بكل صورة وإشاعة العدل والرحمة واحترام النظام والقانون حتى فى الحرب نفسها ، وللاسلام فى ذلك القدح المعلى ويقول القرآن الكريم تأكيداً لهذا المعنى : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » المائدة الآية ٨ .

٤ — التأمين المسلح وقد سبق الإسلام كل الخطوات العصرية إليه فى قول القرآن الكريم « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » الحجرات الآية ٩ ولقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان فى الجاهلية من هذا المعنى وهو حلف الفضول بكل خير وقال عنه « لقد شهدت فى بيت عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم » ثم قال « ولو سئلت به فى الإسلام لأجبت » .

أين خطوات زعماء هذا العصر من هذه الخطوات :

« وبعد » فأين خطوات زعماء هذا العصر وساسته وعلمائه ومشرعيه وفلاسفته من هذه النظرات وماذا صنعوا لإقرار السلام على الأرض وقد شهدت الدنيا فى ربع قرن حربين عالميتين طاحنتين أكلتا الأخضر واليابس وقامت بعد الحرب الأولى «عصبة الأمم» لإقرار السلام فكتب لها أن تموت قبل أن تولد ، ووأدها الذين شهدوا مولدها ، بالأهواء السياسية والأطماع الاستعمارية فلم تستطع أن تعالج قضية واحدة من قضايا الخلاف بين الأمم التى التى اشتركت فيها ووقعت ميثاقها ، ولم تلبث إلا ريثما تهيأت الأمم والشعوب للحرب من جديد ، وقيل إن سبب فشلها خلو ميثاقها من النص على العقوبة العسكرية للمخالفين .

وعقب الحرب العالمية الثانية قامت هيئة الأمم المتحدة وأنشىء مجلس الأمن واستكمل النقص التشريعى فى بناء عصبة الأمم الموءودة ومضى على ذلك وقت طويل ، ولا زال الخلاف يشتد أثره ويقوى مظهره . ولم تنجح الهيئة

ولا المجلس إلى الآن فى علاج قضية أو تسوية خلاف . وليس وراء ذلك إلا الحرب الثالثة .

وليس معنى الحرب الثالثة شيئاً إلا فناء الأرض ومن عليها فنحن فى عصر القنبلة الذرية .

فهل تفىء الإنسانية الحيرى إلى الله وتتلقى دروس السلام قلبياً ونظرياً وعملياً عن الإسلام ؟ دين الرحمة والسلام ؟ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، آلله خير أما يشركون ؟ .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

الرسالة الثانية

« الله » فى العقيدة الاسلامية *

« هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم »

ترددت فى اختيار الكلمة الأولى فى هذا الباب ، باب العقائد طويلاً ! أأكتب عن « الدين » ماهو وما صلته بالنفس والمجتمع وما أثره فيهما وما مدى حاجتهما إليه ؟ أم أكتب عن تاريخ العقائد فى الإسلام وما طرأ على أسباب تصويرها بفعل الأحداث السياسية والاجتماعية والفكرية وتلون هذا الأسلوب بلون العصور التاريخية للأمة الإسلامية ؟ أم أدخل فى الموضوع مباشرة فأكتب عن أجل العقائد قدراً وأعمقها أثراً . وهى العقيدة فى «الله» وأخيراً رأيتنى مدفوعاً إلى هذا المعنى الأخير ولتلك البحوث موضعها إن شاء الله .

أسلوب البحث :

لن ألجأ إلى المصطلحات الفنية التى تواضع عليها العلماء المختصون بعلم الكلام ولن أحاول الخوض فى النظريات الفلسفية أو الأساليب المنطقية التى درج عليها المتكلمون حين يعالجون مثل هذه الموضوعات ولكنى سألجأ إلى القرآن الكريم وإلى السنة المطهرة وإلى ما عرفنا من سيرة الصدر الأول من المؤمنين بهذا الدين وهم لا شك أصفى الناس فطرة وألينهم قلوباً وأدقهم إدراكا للمقاصد وأعرفهم بمواقع الألفاظ والجمل والتراكيب وأعذبهم تذوقاً لدقائق

(*) نشرت فى العدد الثانى من مجلة الشهاب الصادر فى غرة صفر ١٣٦٧ هـ — (١٤ ديسمبر ١٩٤٧ م) .

المعانى والمشاعر وبهذا كانوا نماذج الكمال لأهل هذا الدين .

وإني لأتمثل الآن فريقين من المؤمنين : فريق الصدر الأول الذى تلق العقيدة الإسلامية ألفاظاً مبسطة تنبض بالحياة وتفيض بالشعور وترف بالجمال والوجدان وتوجه إلى العمل الصالح المنتج فلا يعلم للايمان معنى إلا ما صوره به القرآن الكريم فى قول الله تبارك وتعالى : « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون » الآيات ١ — ١١ المؤمنون .

وفريق العصر الأخير الذى تلقى هذه العقيدة مصطلحات فلسفية معقد وكلمات فنية جامدة ميته تكد الذهن وتتعب العقل وتضايق الروح وتتشعب بالفكر فى أودية من الفروض والأخيلة والقضايا والبحوث والمقدمات والنتائ لا نهاية لها . فما هو الإيمان ؟ وما الفرق بينه وبين التصديق ؟ وهل يزي وينقص ؟ وهل هو الإسلام أو هو غيره ؟ وماذا بينهما من العموم والخصوص وهل العمل شرط فيه أو ركن من أركانه أو لازم من لوازمه إلى غير ذلك مما هو من الترف العقلى والاسترسال الفكرى الذى لا صلة له بالنور فى القلب والإشراق فى النفس والتوجه إلى العمل .

أتمثل هذين الفريقين فأعتقد أن من واجبنا أن نعود سريعاً إلى ما كا عليه سلفنا الصالحون وأن نستقى العقيدة من هذا النبع الصافى الذى لا لبس فيه ولا غموض وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه مالك عنه أ قال « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله تعالى وس رسوله صلى الله عليه وسلم » .

ولهذا آثرت أن أسلك فى عرض ما أكتب هذه السبيل وبالله التوفيق

عناصر العقيدة الإسلامية :

وتتكون العقيدة فى « الله » فى الإسلام من هذه العناصر .

١ — الاعتقاد بوجوده الواجب لذاته غير المستمد من سواه ووصفه جل وعلا بصفات الكمال كلها نتيجة للنظر فى هذا الكون .

فالله تبارك وتعالى موجود موصوف بالعلم وبالقدرة وبالحياة وبالسمع وبالبصر وبالجمال وبالحكمة وبالإرادة الخ وذلك واضح معلوم علم اليقين لكل من نظر فى هذا الكون البديع الصنع فالخالق حكيم لوضوح أسرار هذه الحكمة فى المخلوقات وقادر وعالم بأجمع معانى العلم والقدرة وأسماها لأن هذا الكون البديع لا يكون إلا عن علم واسع وقدرة محيطة — والقرآن الكريم يعدد هذه الصفات فى كثير من المناسبات ، ومن أجمع آياته فى ذلك خواتيم سورة الحشر « هو الله الذى إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » .

٢ — نفى صفات المشابهة والنقص عن الخالق سبحانه . فالتجسيم منفى عنه لأن المادة تتحول والخالق بعيد عن وصف التحول ، والتعدد منفى عنه لأنه تركيب والإله لابد أن يكون واحداً . والأبوة والبنوة بعيدان عن صفاته لأنهما تجزئة وانفصال والخالق لا يتجزأ وهكذا . . والقرآن الكريم يقرر هذا فى وضوح ويجادل عنه فى منطق دقيق وحجة بالغة . فيقول فى نفى المشابهة «فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير» سورة الشورى الآية ١١

« قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » ويقول فى نفى التعدد « أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون » سورة الأنبياء ٢٢، ٢٣ وفى نفى البنوة والتعدد معاً « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون » المؤمنون ٩١ وترى ذلك واضحاً فى كثير من الآيات التى ناقش بها القرآن الكريم عقائد الأمم السابقة فنفى كل معانى النقص والمشابهة والقصور عن الخالق سبحانه وتعالى .

٣ — عدم التعرض للحقيقة والماهية فى الذات والصفات من حيث هما مع الاحتراس الدقيق بتقرير المخالفة التامة بين ماهية ذات الإله وصفاته وماهية المخلوقات وصفاتهم . يقول القرآن الكريم فى سورة الأنعام « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » الأنعام ١٠٢ ، ١٠٣ وفى الحديث « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا [1] » .

---

(١) هذا الحديث ورد بألفاظ يتفق معناها . قال الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث الاحياء رواه أبو نعيم فى الحلية بالمرفوع منه بإسناد ضعيف ورواه الأصبهانى فى الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه ورواه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا إسناد فيه نظر : فيه الوازع بن نافع متروك . وزاد الزبيدى فى الشرح قلت : حديث ابن عمر لفظه « تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله » هكذا رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب التفكر وأبو الشيخ فى العظمة والطبرانى فى الأوسط وابن عدى وابن مردويه والبيهقى وضعفه الأصبهانى وأبو نصر فى الابانة وقال غريب ورواه أبو الشيخ من حديث ابن عباس « تفكروا فى الخلق ولا تفكروا فى الخالق فإنكم لا تقدرون قدره » ورواه ابن النجار والرافعى من حديث أبى هريرة « تفكروا =

ومن البديهى أن هذا الموقف لا يؤخذ على الإسلام فى شىء ولا يقال إنه حجر على العقول وانتقاص من حرية الفكر فإن العقل البشرى وهو عماد العقيدة فى الإسلام يقف إلى الآن موقف العجز المطلق أمام حقائق الأشياء جميعاً وكل الذى وصل إليه إنما هو الخواص وبعض الصفات والآثار أما البسائط المجردة فلم يصل إلى حقيقتها بعد وما كان الإسلام ليكلف الناس ما لا تستطيع أن تدركه العقول والأفهام .

٤ — رسم الطريق إلى معرفة صفات الخالق وإدراك كمالات الألوهية ومميزاتها وآثارها والوصول إلى ذلك عن طريق النظر فى الكون نظراً صحيحاً وتحرير العقول والأفكار من الموروثات والأهواء والأغراض حتى تصل إلى الحكم الصائب ، والقرآن يحث دائماً على النظر فى المكونات والتأمل فى المخلوقات ويرفع من قيمة العقل ويعلى من قدر الفكر ، حتى لقد ذكر العقل فى أكثر من أربعين موضعاً مقروناً بالتبجيل والتكريم والحث على الجد إلى إدراك الحقائق وكشف مستورات الوجود مثل قول الله تبارك وتعالى « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » البقرة ١٦٤ وقوله تعالى « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلاً

= فى خلق الله ولا تفكروا فى الله » الخ وتعدد هذه الروايات واجتماعها يكسبها قوة والمعنى صحيح كما قال الحافظ السخاوى فى المقاصد . من تعليق السيد رشيد على رسالة التوحيد .

سبحانك فقنا عذاب النار » آل عمران الآية ١٩٠ ، ١٩١ وقوله تعالى « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء » فاطر ٢٧ و ٢٨ ، وهو فى هذه الآية يحض على اكتشاف غرائب النبات والحيوان والجماد ثم يرتب على ذلك الخشية من الله إشارة إلى مابين معرفة الكون والعلم به ومعرفة مكونه والعلم به كذلك من صلة .

٥ — تقوية الصلة بين الوجدان الإنسانى والخالق جل وعلا حتى يصل الإنسان بذلك إلى نوع من المعرفة الروحية هو أعذب وأصدق أنواع المعرفة جميعاً ، وذلك أن الوجدان الإنسانى أقدر على كشف المستورات غير المادية من الفكر المحدود بقيود المادة ونتائج الأقيسة الحسية ، فالإسلام كثيراً مايخاطب الوجدان ويستثير الخواص النفسانية الكامنة فى الإنسان لتسمو إلى حظائر الملأ الأعلى وتستشعر لذة معرفة الله تبارك وتعالى « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » الرعد ٢٨ ، وأوضح ماتكون هذه الصلة الخفية بين الضمير الإنسانى وبين الخالق عند الشدائد التى تنقطع فيها الآمال إلا من الله وحده . ويصور القرآن هذا المعنى فى مثل قول الله تعالى « وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه » الإسراء ٦٧ وقوله تعالى « هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين » يونس الآية ٢٢ .

٦ — مطالبة المؤمنين بأن تظهر فى أقوالهم وأفعالهم آثار هذه العناصر العقدية ، فالمؤمن متى اعتقد أن خالقه قادر كانت النتيجة العملية لهذه العقيدة أن يتوكل عليه وأن يلجأ إليه . وإذا اعتقد أنه عالم راقبه واستولت عليه خشيته . وإذا اعتقد أنه واحد لم يدع سواه ولم يسأل غيره ولم يصرف وجهه إلا إليه وهكذا . والآيات فى ذلك كثيرة من مثل قول الله تعالى « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنين حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم» الأنفال ٢ — ٤ .

وبهذا التلخيص والتصوير البديع الدقيق جمع الإسلام كل مايتصل بالعقيدة فى الله تبارك وتعالى ووضع حداً مانعاً من التخبط والتحريف والتفلسف بالباطل والجدل التافه فى أقدس العقائد وأمسها بحياة الناس فى الأولى والآخرة ..

وأظن أن الذين يفقهون هذه المعاني ويتذوقونها ليسوا بعد ذلك فى حاجة إلى أن يحفظوا أن الواجب فى حقه تعالى ثلاث عشرة صفة هى الوجود والقدم والبقاء ومخالفته تعالى للحوادث وقيامه بنفسه والقدرة والوحدانية والإرادة والعلم والسمع والبصر والكلام وبقية الصفات العشرين وأن المستحيل فى حقه تعالى أضداد هذه الصفات وأن الجائز فعل كل ممكن أو تركه ، كما كنا نحفظ ذلك نحن من قبل .

وليسوا فى حاجة كذلك إلى التطويل فى معالجة البحوث الفرعية المتصلة بهذه العقائد كبحث الصفات والأسماء وهل هى توقيفية أو قياسية ومتعلقات هذه الصفات المسمى عين الإسم أو غيره ، والعمل شرط فى الإيمان أو غير

شرط فيه الخ مما يتصل بالفلسفة والترف العقلى أكثر مما يتصل بالعقيدة والاطمئنان القلبى .

ووصيتى إلى القراء الكرام أن يلاحظوا هذه المقاصد وهم يقرءون كتاب الله تبارك وتعالى ويجتهدوا حين القراءة فى التدبر على ضوئها وسيجدون فى ذلك لذة وإشراقاً لا يعدلهما شىء .

أما ماذا يقول الجاحدون من الملاحدة وبم يرد عليهم فهذا ماسنعرض له — فى الكلمة التالية إن شاء الله ..

— ٢ —

تطور عقيدة الألوهية *

يقول الجاحدون بآيات الله : إن أساس عقيدة الألوهية نوع من « الضعف الإنسانى » استحوذ على الإنسان الأول حين رأى نفسه وحيداً فى مجاهل هذه الأرض . هائماً على وجهه بين المغاور والكهوف ، يخشى على نفسه الحيوانات المفترسة ، ويجد الوحشة والحيرة أمام حوادث الكون الغريبة على سمعه وبصره ، ويتلمس النفع والفائدة وسد حاجاته الطبيعية من طعام وشراب ودفء أينما وجد إليها سبيلاً ويستشعر الراحة واللذة أحياناً فى ضروب من الأعمال أو المشاهدات كما يجد الألم والعناء فى أعمال ومشاهدات أخرى ، وكل ذلك دفع به إلى أن يجد الرهبة لما هو أقوى منه والرغبة فيما يفيده وينفعه والإعجاب بما يسره ويطمئنه فخضع لهذه المعانى جميعاً وظهر هذا الخضوع فى صورة عبودية وتأليه ، فعبد وأله صنوفاً من الحيوان والنبات وعبد وأله من هو أقوى منه من بنى الإنسان ، وعبد وأله الشمس والقمر

(*) نشرت فى العدد الثالث من مجلة الشهاب الصادر فى غرة ربيع الأول ١٣٦٧ هـ (يناير سنة ١٩٤٨ م) .

والنجوم والكواكب وصنع التماثيل والرموز ، واخترع الصور والطقوس ليعبر بها عن هذه المشاعر ، وعبد وأله النار والنور ، والخير والشر ، وأقام لذلك كله المعابد ، وجاء الرسل فاستغلوا فى الإنسان هذا الشعور ووضعوا له هذه العقيدة فى « الله » وما هى إلا عقيدة وهمية لا وجود لها ولا حقيقة وإنما يؤمن بها السذج البسطاء الذين ينخدعون بالظنون وتروج عندهم الأوهام ، أما الراسخون فى العلم فى عرفهم القائمون على دولة المنطق والفكر ، المستنيرون بثمرات البحث العقلى فهؤلاء لا يقيمون وزناً لهذه الآراء وخصوصاً وأن أحداً من الناس لم ير هذا الإله بعينه ولم يدركه بإحدى حواسه . والحواس هى وسائل المعرفة والإدراك الذى لا شك فيه .

ويقولون إن لهذه العقيدة أثرها فى فساد المجتمعات ، فإنها تعلم الناس الكسل والتواكل والرضا بالظلم والصبر على الضيم وتخدعهم عن حقهم فى الحياة بما تطبعهم عليه من الضعف والاستسلام وترقب حكم القضاء والاعتماد على القدر ، ولهذا أطلق بعض فلاسفة هذة الفكرة المادية الصرفة على العقائد والأديان « مخدر الشعوب » وجعلوا فى رأس مناهجهم الإصلاحية الاجتماعية أن يحاربوا « الدين » وأن ينزعوا عقائده من صدور أهله بكل سبيل ، وهم بمزاعمهم هذه الباطلة يحاولون أن ينالوا من عقيدة الألوهية الحقة الواضحة فى مصدرها وأصلها ، وفى جليل نتائجها وعظيم أثرها ، ولن يستقيم لهم ذلك فإنه باطل لا يقوم أمام الحق . « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون » سورة الأنبياء الآية ١٨ وهو ناموس الوجود الذى لا يتخلف أبداً « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » سورة الرعد الآية ١٧ .

لم يكونه الوهم ولا تكونه الفطرة ؟

ونقول لهؤلاء الجاحدين . إنكم حملتم هذا الشعور بالحاجة إلى القوة المساعدة والأشراقة الهادية والسكينة المطمئنة إلى الوهم والخيال ولا دليل لكم على ذلك إلا مجرد التحكم والتلاعب بالألفاظ ، ولم لا يكون هذا الشعور هو « فطرة الإنسان » التى فطره الله عليها ، وهى حقيقة لاوهم معها ولا خيال ، فللانسان مطالبه المادية التى يقوم عليها وجوده البدنى وله كذلك مطالبه النفسانية التى يتم بها كيانه الروحى ، وهذه الغرائز من الخوف والخشية والعواطف من الحب والإشفاق والمشاعر من اللذة والسرور هى وسائله إلى هذا الرقى النفسانى الذى لايبلغ الإنسان مدارج الكمال فيه إلا إذا عرف « الله » « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون » سورة الروم الآيات ٣٠ ، ٣٢ .

دليل الفطرة أول الأدلة :

إن هذا الشعور الذى يراه الجاحدون دليلا على الإغراق فى الوهم يراه المؤمنون أول الأدلة على وجود الله تبارك وتعالى وعظمته وتأصل الاعتقاد بذلك فى نفوس البشر أجمعين إلا من انحرفت فطرتهم ومرضت قلوبهم فضلوا عن السبيل ، كما يرونه كذلك النبع الصافى لمعرفة الله .

قد يختلف البشر فى تصور العقيدة فى « الله » عز وجل ولكنهم لم يختلفوا

فى القديم ولا فى الحديث فى الإيمان بوجوده وعظمته وضرورة معرفته والاتصال به .

وإن الجماعة البشرية التى يبلغ تعدادها اليوم ١٥٠٠ مليون من الأنفس لاتخلو حياة أمة من أممها عن مراسيم العبودية « لله » كائنة ما كانت هذه المراسيم والطقوس .

وإن تاريخ هذه الأمم جميعاً لم يخل يوماً من الأيام من هذه العقيدة ، وإن لغات العالم فى القديم وفى الحديث على اختلاف لهجاتها واشتقاقاتها لم تهمل التعبير عما يخالج نفوس الناس من العقائد والمشاعر المتصلة بالله ، فعلى أى شىء يدل هذا كله إلا على أن العقيدة فى الله الخالق العظيم ، فطرة فى نفوس البشر فطر عليها الناس يوم خلقهم وصدق الله العظيم « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى » سورة الأعراف الآية ١٧٢ .

سأل رجل جعفر الصادق رضى الله عنه عن « الله » فقال — ألم تركب البحر ؟ قال : بلى ، قال : فهل هاجت بكم الريح عاصفة ؟ قال : نعم ، قال : وانقطع أملك حينئذ من الملاحين ووسائل النجاة ؟ قال نعم ، قال: فهل خطر ببالك وانقدح فى نفسك أن هناك من يستطيع أن ينقذك إن شاء ؟ قال نعم ، قال : فذلك هو « الله » — وإلى هذا أشارت الآية الكريمة « وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه » سورة الإسراء الآية ٦٧ والآية الكريمة « هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين » سورة يونس الآية ٢٢ .

دليل البداهة :

ولأن العقيدة فى الله تبارك وتعالى مصدرها الفطرة الإنسانية أولا ذهب بعض الفلاسفة إلى أن وجوده سبحانه وما يتصل بهذا الوجود من معانى العظمة العامة من البدائه التى لاتحتاج إلى دليل ، وإنما جاء الرسل وتنزلت الكتب لتدل الناس على ماسوى ذلك من صفات الكمال ، وما يجب أن يتنزه عنه الخالق سبحانه من صفات النقص التى لاتليق بجلاله ولترشدهم إلى حقه عليهم وحدود صلتهم به وصلته بهم . وليس غريباً أن يصدق العقل الإنسانى أو يؤمن القلب الإنسانى بشىء بدون برهان ، فهذا شأنه فى كل المسائل البديهية وهى أوليات علومه ومعارفه وأحاسيسه . فالكل أعظم من الجزء حقيقة مقررة بدون برهان ، والواحد نصف الاثنين كذلك ، والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان . وقائل هذا القول لم يبعد عن الحقيقة ، ولم يجاف الصواب عند من سلم إدراكه وصحت فطرته .

من الأدلة على صدق العقيدة فى الله :

على أن الأدلة على صدق العقيدة فى الله تبارك وتعالى ، وجوده وعظمته وجميل صفاته وتقدسه عن كل نقص واستحقاقه لكل كمال أكثر من أن تحصر ، وهى واضحة بينة فى كل صفحة من صفحات هذا الكون ومظهر من مظاهر هذا الوجود .

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملأ الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها لو تأملت سطرها إلا كل شىء ماخلا الله باطل

وجود هذه الكائنات على اختلاف طبائعها وخصائصها ونواميسها دليل

قاطع على وجود مكونها وقدرته وعظمته والتناسق العجيب والارتباط الغريب بينها جميعاً وما يعرض لها من اختلاف الخواص والمميزات بالتحليل والتركيب وتفاوت نسب العناصر والذرات ... دليل على واسع علمه ومطلق إرادته ، ومحال أن تكون المادة الصماء أو الصدفة العمياء هى مصدر هذه الحياة النابضة بالحس والحركة ومبعث هذا التناسب والتناسق بين هذه المكونات وإنما هو صنع الله الذى أتقن كل شىء « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » .

من شهادات علماء الكون :

ومن هنا كان علماء الكون من أعرف الناس بالله وأوثقهم اعتقاداً به وكانت العلوم الكونية الطبيعية من الوسائل القريبة إلى معرفة الله ، وإلى هذا أشارت الآية الكريمة « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء » سورة فاطر الآية ٢٧ — ٢٨ .

وذلك على عكس ما يظنه ويذهب إليه أغرار المخدوعين بقشور من المعرفة ، وزخرف أقوال تلقفونها عن الملاحدة فى عصر مضى أوانه وانقضى إبانه ، وهذه بعض أقوال أولئك العلماء الكونيين تنطق بالإيمان بالله رب العالمين .

قال ديكارت : « إنى مع شعورى بنقص ذاتى أحس فى الوقت نفسه بوجود ذات كاملة وأرانى مضطراً إلى اعتقادى بأن هذا الشعور قد غرسته فى ذاتى تلك الذات الكاملة المتحلية بجميع صفات الكمال ، وهى « الله » .

وقال إسحق نيوتن : « لا تشكوا فى الخالق فإنه مما لا يعقل أن تكون المصادفات وحدها هى قاعدة هذا الوجود » . وقال هرشل : « كلما اتسع نطاق العلم زادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزلى لا حد لقدرته ولا نهاية . فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا على تشييد صرح العلم وهو صرح عظمة الله وحده » . وأفاض هربرت سبنسر فى هذا المعنى فى رسالته فى التربية إذ يقول : « العلم يناقض الخرافات ولكنه لا يناقض الدين نفسه ، يوجد فى كثير من العلم الطبيعى الشائع روح الزندقة ولكن العلم الصحيح الذى فات المعلومات السطحية ورسب فى أعماق الحقائق براء من هذه الروح ، العلم الطبعى لا ينافى الدين والتوجه للعلم الطبعى عبادة صامتة واعتراف صامت بنفاسة الأشياء التى نعانيها وندرسها ثم بقدرة خالقها ، فليس ذلك التوجه تسبيحاً شفهياً بل هو تسبيح عملى ، وليس باحترام مدعى وإنما هو احترام أثمرته تضحية الوقت والتفكير والعمل ، وهذا العلم لا يسلك طريق الاستبداد فى تفهيم الإنسان استحالة إدراكه كنه السبب الأول وهو « الله » ولكنه ينهج بنا النهج الأوضح فى تفهيمنا الاستحالة بإبلاغنا جميع الحدود التى لا يستطاع اجتيازها ثم يقف بنا فى رفق وهوادة عند هذه النهاية وهو بعد ذلك يرينا بكيفية لا تعادل صغر العقل الإنسانى إزاء ذلك الذى يفوت العقل ... » ثم أخذ يضرب الأمثلة على ما ذهب إليه فقال : « إن العالم الذى يرى قطرة الماء فيعلم أنها تتركب من الأوكسجين والإيدروجين بنسبة خاصة بحيث لو اختلفت هذه النسبة لكانت شيئاً آخر غير الماء يعتقد عظمة الخالق وقدرته وحكمته وعلمه الواسع بأشد وأعظم وأقوى من غير العالم الطبيعى الذى لا يرى فيها إلا أنها قطرة ماء فحسب . وكذلك العالم الذى ترى قطعة البرد (قطعة الثلج الصغيرة النازلة مطراً) وما فيها من جمال

الهندسة ودقة التصميم لا شك أنه يشعر بجمال الخالق ودقيق حكمته أكثر من ذلك الذى لا يعلم عنها إلا أنها مطر تجمد من شدة البرد .

قصور العقل الإنسانى :

والفكر الإنسانى بإجماع المفكرين والعقلاء قاصر عن إدراك كنه ما يحيط به من الموجودات الحسية جميعاً فضلا عن القوى والكائنات التى لا تقع تحت حسه — وإن كان مجبولا على مواصلة البحث والنظر ، وتلك هى مهمته ووظيفته التى لا تنفك عنه ولا ينفك عنها . على أن قصارى ما يصل إليه معرفة بعض المزايا والخصائص والصفات ، أما الحقائق المجردة والماهيات البسيطة فلم تقع فى دائرة إدراكه بعد والذى يقوله الراسخون فى العلم أنها لن تقع فى إدراكه ، وأنه كلما حاول بحكم طبيعته الوصول إليها ، والحصول عليها أفلتت منه وتركت بين يديه بعض خصائصها وصفاتها .

العقل الإنسانى لم يدرك بعد شيئاً من حقائق العناصر المبسطة ، وكلما أوغل فى الجرى وراء حقيقتها انقلبت أمامه إلى مركبات تضاعف جهله بها ، وبعد أن كان أمام عنصر واحد يجد فى البحث عن حقيقته يصبح أمام عنصرين أو أكثر عليه أن يبحث عن حقائقها من جديد ، وقل مثل ذلك فى ماهية القوى الكونية التى تبدو فى الحياة واضحة كل الوضوح بآثارها ، مجهولة كل الجهالة بحقيقتها كالكهرباء والمغناطيسية والأثير والجاذبية إلى غير ذلك من الأسماء والألفاظ والفروض والمصطلحات التى اخترعها الفكر الإنساني ليستر بها حقيقة جهله « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

والعقلاء جميعاً متفقون على أن قصور العقل عن إدراك كنه حقيقة من الحقائق أو جهله بها ليس معناه عدمها أو خفاؤها فهى واضحة كل الوضوح

بآثارها وخصائصها خفية كل الخفاء بأسرارها ودقائق ماهيتها .

إن الفطرة الإنسانية السليمة تهتف بالإنسان دائماً وأبداً أن يتعرف إلى الله وكل مظاهر هذا الكون وموجوداته بما فيها نفس الإنسان لا تجد أمام الفكر الإنسانى أى مجال لإنكار وجود الله وعظمة الله والدلالة الواضحة على (الله) وأن القلب الإنسانى إذا صفا وأشرق تذوق حقيقة لذة الإيمان (بالله) ولقد سئل أحد العارفين عن الأدلة التى أقنعته بالإيمان بالله فابتسم وقال أغنى الصباح عن المصباح متى احتاج النهار إلى دليل ؟ .

فقصور العقل الإنسانى عن إدراك حقيقة ذات الخالق وصفاته وقصور الحواس الإنسانية الكليلة عن الوصول إلى شىء من ذلك ليس معناه العدم والجحود والإنكار وكما سلم العقل الإنسانى والحس الإنسانى بما لم يدركه من هذه القوى المحيطة به فإن لزاماً عليه أن يسلم برب هذه القوى ويسلم وجهه إليه « وأمرنا لنسلم لرب العالمين » .

أى الطريقين خير ؟

وأما أن عقيدة الألوهية كان لها فى المجتمع الإنسانى أسوأ الآثار فقول منقوض من أساسه لا يقوله إلا جاهل بتاريخ البشر أو مكابر فى الحق بغير برهان .

وما وقعت هذه المفاسد التى يذكرونها إلا حين ترك الناس هذه العقيدة أو آمنوا بها على غير وجهها ، ودواء ذلك الإيمان والعلم وليس الجحود والكفران . إن خلاصة إيمان المؤمنين بالله الحق أنهم موقنون بأن لهم إلهاً اتصف بالكمالات كلها وتنزه عن النقائص كلها ، لا علم أوسع من علمه ، ولا قدرة أعظم من قدرته ، ولا كمال أفضل من كماله ، هو معهم أينما كانوا يرى ويسمع ، ويحصى ما يقولون وما يعملون ، وأنه أمرهم بالخير كله لأنفسهم

ولغيرهم ، ونهاهم عن الشر كله لأنفسهم ولغيرهم ، وأن تعرفهم إليه وصلة أرواحهم به هى السعادة كل السعادة والفوز العظيم والنعيم المقيم .

هذا الإيمان هو وحده ولا شىء غيره سر حياة الضمير الإنسانى ويقظة الشعور وإشراق الوجدان وعماد الخلق ومصدر الفضيلة فى الإنسان ، وعن هذا الإيمان وحده تنبعث أكمل الصفات الإنسانية الاجتماعية من الإيثار والتضحية والحب والرحمة وإسداء الجميل والتعاون على البر والتقوى واحتمال مشاق الجهاد والبذل فى سبيل الحق والخير وإقرار المثل العليا فى أرض الله .

ولا يمكن أن يستقيم فرد بغير ضمير حى ووجدان مشرق ومحال أن تنهض أمة بغير الحب والتعاون والبذل والإيثار والجهاد .

ومتى فقد الإيمان فقدت هذه المزايا جميعاً وانقلب المجتمع إلى قطعان من الوحش والحيوان يأكل بعضها بعضاً ومصداق ذلك فى تاريخ الأمم جميعاً فى القديم والحديث على السواء .

ولم ير تاريخ الإنسانية انقلاباً أعظم ولا إصلاحاً أتم ولا حضارة أبقى وأخلد من الانقلابات والإصلاحات والحضارات التى قامت على الأصول والقواعد التى جاء بها الأنبياء العظام موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام وعصارة هذه الأصول وخلاصتها وأعلاها وأثبتها « الإيمان بالله » .

فماذا يريد أولئك الجاحدون أن يفعلوا بأنفسهم وبالناس ؟

القضاء والقدر :

ودعوى أن الإيمان بقضاء الله وقدره مدعاة للتواكل ، معينة على الخمول والكسل دعوى منقوضة من أساسها كذلك ، فإن الإيمان بالقضاء والقدر كما

جاءت به الأديان السماوية مفروض على المؤمنين فى النتائج لا فى الأسباب ، فهم مطالبون بالأسباب ، مفروض عليهم السعى لها والأخذ بها ، مطالبون بعد ذلك بأن يتركوا النتائج لله مدبر الكون الواحد الأعظم .

ومن هنا كانت عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر سر عظمة المسلمين الأولين لأنهم أخذوا فى الأسباب وبذلوا جهدهم فى استقصائها إنفاذاً لأمر الله ولم يتهيبوا النتائج الضارة المؤلمة رضىً بقضاء الله ففازوا بالحسنيين وكان أحدهم حين يخرج إلى الجهاد فى سبيل الله لا يبالى أوقع على الموت أم وقع الموت عليه وتأمل قول أحدهم :

أى يومى من الموت أفر يوم لا يقدر أو يوم قدر
يوم لا يقدر لا أرهبه ومن المقدور لا ينجى الحذر

لترى وتلمس أى معنى من معانى البطولة والشجاعة والاستبسال قذفت به فى نفسه عقيدة القضاء والقدر فى الوقت الذى لم يكن لها عنده أى أثر فى إعداد العدة وتحين الفرصة والخروج إلى الصف ومقارعة الأبطال .

وما ابتلى الناس بهذا التواكل والكسل إلا يوم آمنوا بعقيدة القضاء والقدر إيماناً معكوساً فأخذوا بها فى الأسباب ، فلم يستعدوا . ونسوها فى النتائج فلم يرضوا ولا ذنب فى هذا العكس للعقيدة ولا للايمان .

الإيمان بالله هو الدواء :

إن الإنسانية الحائرة المعذبة الضالة لن تجد دواءها وهداها إلا فى ظل عقيدة الإيمان بالله وجميل قول ذلك الفيلسوف الغربي « لو لم يكن الله موجوداً لوجب علينا أن نخلقه » وقوله فى عبارة أخرى « يجب أن يزج فى السجن صاحب أية مدرسة يكون شعارها لا يعلم الدين هنا » وليس الدين إلا الإيمان

بالله فهل يطلع ذلك الفجر الذى يغمر فيه هـذه القلوب الحائرة المظلمة المتعبة ضياء الإيمان بالله وتطلع عليها شمس معرفته بالدفء والحرارة والنور ؟

— ٣ —

الأخطاء التى وقعت فيها الشعوب فى عقيدة الألوهية وموقف القرآن منهـا *

جاء القرآن الكريم يثبت فى النفوس عقيدة الألوهية « الإيمان بالله عز وجل » على النحو الذى ذكرناه آنفاً ، وسلك إلى هذا التثبيت أقوم السبل وأيسرها ، وأكثرها بساطة وسهولة ، وألصقها بالفطرة الإنسانية ، وأبعدها عن التكلف والتعقيد كما تقدم ، كما عنى القرآن مع هذا التثبيت بتصحيح هذه العقيدة ونفى الأخطاء والأغاليط والخرافات والأوهام عنها ، ومن أجل ذلك عرض لأوهام الشعوب وأخطاء الأمم الماضية ، ورد عليها رداً مفحماً واضحاً ، وحاربها حرباً قوية صارمة وسد منافذها ومداخلها وذرائعها سداً محكماً ، ولم يدع فى ذلك زيادة لمستزيد .

وكانت جملة تلك الأخطاء فيما تناوله القرآن الكريم — الوثنية والتعدد والشرك والتبنى وتأليه البشر وغيرهم من خلق الله كالحيوان والشجر والكواكب ، وأصلها جميعاً القصور فى الإدراك والخطأ فى التصور والغلو فى التعظيم والحب ومحاولة إبراز خصائص الألوهية ولوازمها وما يتصل بها وتجسيمها فى صور محسة ، ثم سوء استخدام هذه الرمزيات الحسية حتى نسى المقصود الأصلى ، وانتقلت هذه الخصائص واللوازم إلى تلك الرموز ، هذا مع سوء فهم التعبيرات الدينية أو تحريفها أو حملها على غير ما تقصد إليه ،

(*) نشرت بالعدد الرابع من مجلة الشهاب الصادر فى غرة ربيع الآخر سنة ١٣٦٧ هـ (فبراير سنة ١٩٤٨ م) .

والتعمق فى الفلسفة النظرية والاسترسال وراء الافتراضات العقلية بغير برهان واضح أو دليل قائم مما يورط فى تخيل ما يتنزه عنه ذات الخالق جل وعلا من حلول أو وحدة أو اتحاد أو غيرها من مزالق الآراء — وكثيراً ما تقع الشعوب فى هذه الأخطاء كلها أو بعضها جملة واحدة ، إذ أن أحدها كثيراً ما يستتبع غيره ويأخذ بعضها بحجز بعض .

قوم نوح :

ذكر القرآن الكريم قوم نوح وأنهم كانوا يعبدون الأوثان وذكر من هذه الأوثان ود — وهو صنم كان لقبيلة كلب بدومة الجندل ، وسواع وهو صنم لهذيل ، ويغوث وهو صنم غطيف من مراد بالجرف ، ويعوق وهو صنم همدان ، ونسر وهو صنم ذى الكلاع من حمير — وقال بعض أهل التأويل إنهم كانوا قوماً صالحين فماتوا ، فصنع القوم لهم تماثيل يذكرونهم بها ويرمزون إلى تقديرهم إياهم بوجودها ، ثم تطاول عليهم الزمن فنسوا المقصد الأصلى واعتبروها آلهة تعبد من دون الله ، وجاء نوح عليه السلام ليردهم إلى الله العلى الكبير فلم يسمعوا له ولم يطيعوه فعاقبهم الله وفى ذلك يقول القرآن الكريم .

« قال نوح رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً ومكروا مكراً كباراً وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالا مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً » .
سورة نوح : الآيات ٢١ — ٢٥ .

قوم إبراهيم :

وذكر القرآن الكريم قوم إبراهيم عليه السلام وسجل عليهم عبادة

الأصنام والأوثان وعبادة الكواكب والنجوم والشمس والقمر والبشر أيضاً ، ويفهم من الآيات فى ذلك وفى موقف الخليل عليه السلام منهم إن ذلك كان أمراً منتشراً بينهم متأصلاً فيهم وأنه عليه السلام كان قوياً فى دعوتهم إلى توحيد الله ثابتاً على الحق الذى آمن به وكلف بتبليغه ، واضح الحجة والبرهان أمام باطلهم ، وأنه كان كثيراً ما يخرجهم بوضوح محجته وقوة حجته وحسن تلطفه وبديع أسلوبه ، حتى ضاقوا به ذرعاً وأرادوا به كيداً ولم يجدوا له عذاباً إلا النار فقال بعضهم لبعض حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين فقال الله تبارك وتعالى لنارهم « كونى برداً وسلاماً على إبراهيم » .

ورد اسم إبراهيم عليه السلام وقصته فى خمس وعشرين سورة من سور القرآن الكريم فى البقرة . وآل عمران . والنساء . والأنعام . والتوبة . وهود . ويوسف . وإبراهيم . والحجر . والنحل . ومريم . والأنبياء . والحج . والشعراء . والعنكبوت . والأحزاب . والصافات . وص . وشورى . والزخرف . والذاريات . والنجم . والحديد . والممتحنة . والأعلى . وجاءت على صور مختلفة مفصلة أحياناً وموجزة أحياناً أخرى . ومن أروع ما عرضه القرآن الكريم فى ذلك محاجته لقومه فى عبادة الأصنام وفى عبادة الكواكب وفى تأليه البشر .

فى سورة الأنبياء ابتداء من الآية ٥١ إلى الآية ٧١ عشرون آية تصور أبلغ تصوير محاجة إبراهيم لقومه فى عبادة الأصنام ، وكيف انتصر عليهم أروع انتصار . وفى سورة الأنعام ابتداء من الآية ٧٥ إلى الآية ٨٣ ثمانى آيات تصور أبلغ تصوير محاجته إياهم فى عبادة الكواكب وكيف آتاه الله الحجة عليهم فلم يحيروا معه جواباً .

وفى سورة البقرة من الآية ٢٥٨ محاجة إبراهيم لهذا الذى ادعى الألوهية تجبراً وعتواً وكيف ألزمه الحجة « فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين » .

وفى الآيات ٤١ — ٥٠ من سورة مريم تصوير بديع لمحاورة إبراهيم لأبيه ودعوته إياه ، ولما كان يتحلى به عليه السلام من قوة فى الحجة . ووداعة فى الخلق ، ولطف فى الأسلوب ، وصلابة فى الحق . ولقد ذهب بعض المفسرين إلى أن (آزر) الذى جاء ذكره فى سورة الأنعام ليس إسماً لأبى إبراهيم ولكنه إسم لصنم عظيم من أصنامهم التى كانوا يعبدونها ، وأن إبراهيم أراد نهى أبيه عن ذلك بقوله « آزر أتتخذ أصناماً آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين » ، أى اترك آزر ودع عبادته سورة الأنعام الآية ٧٤ ، وذهب بعضهم إلى أن المخاطب ليس والد إبراهيم ، ولكنه عمه أو قريب هو منه بمنزلة الوالد ، وليس فى هذين القولين مايباعد بينهما وبين الصحة ، بل لعل هناك ما يرجح ذلك إن شاء الله والله أعلم بالحق فى ذلك ، والذى يتصل بما نحن فيه ، أن إبراهيم كان دائب المحاربة للأوثان وللأصنام باللين تارةوبالشدة أخرى ، لايدع ذلك ولا يتسامح فيه حتى مع أقرب الناس إليه « قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم وما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء . ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير » سورة الممتحنة الآية ٤ . « وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم» سورة

التوبة الآية ١١٤ « وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين » سورة العنكبوت الآية ٣٥ ، ومن هنا وصفت ملة إبراهيم بأنها الحنيفية السمحة البريئة من الشرك ووصف إبراهيم بما جاء فى سورة النحل « إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم » الآيتان ١٢١ و ١٢٢ ، ومن هنا صار أباً للمسلمين أى للذين أسلموا وجوههم لله خالصة وبرئوا من ألوان الشرك وضروبه ولوثاته « ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس » سورة الحج الآية ٧٨ .

وكأنما أراد الحق تبارك وتعالى أن ينصرف الناس بدعوة إبراهيم وعمله عن الرمزية الوثنية الخاطئة إلى الرمزية البشرية الصحيحة فعهد إلى إبراهيم عليه السلام أن يبنى الكعبة قياماً للناس ويرفع قواعد البيت ليكون رمزاً لمشاعر البشر الفردية والاجتماعية ومثابة لوحدتهم وأمناً لخوفهم وقلقهم لا رمزاً لصفات الإله جل وعلا وخصائصه وأفعاله فصدع إبراهيم بأمر ربه وكان شعاره هو وإبنه إسماعيل وهما يرفعان قواعد البيت هذا الدعاء الكريم الذى مثل التوحيد الخالص « ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم . ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى

الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين » سورة البقرة الآيات ١٢٨ ، ١٣١ .

ولقد حرص إبراهيم على أن يجعل الإسلام نبراساً لذريته . وبقية فى عقبه « وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون » سورة الزخرف الآية ٢٨ . « وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً وجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام » سورة إبراهيم الآية ٣٥ .

قوم موسى :

واستعرض القرآن بعد ذلك رسالة موسى عليه السلام للاسرائيليين والمصريين معاً وكانت مصر حينذاك تمثل جوانب الرقى الإنسانى ، وأرقى مافى الحضارة البشرية من علم ومعرفه وهداية ونور . ولم تكن الوثنية ديانة المصريين الأصلية ، ولكن أصل ديانتهم التوحيد على ماعرف من كثير من كتاباتهم وآثارهم وتجدد النهضات الدينية بينهم ، ولكن العوامل التى تعدو على المجتمعات والشعوب فى عقائدهم عدت عليهم أيضاً ، فانتقل الدين من الوحدانية الخالصة إلى الوثنية بمظاهرها المختلفة . فعبدوا الأوثان من التماثيل والمنحوتات ، وعبدوا الحيوان كالعجل والجعران ، وعبدوا الكواكب كالشمس وعبدوا الملوك والفراعنة واعتبروهم آلهة أو أشباه آلهة ، وسرت منهم العدوى إلى بنى إسرائيل وتمكنت من أنفسهم تمكناً ذريعاً حتى إنهم بعد أن رأوا من آيات الله مارأوا على يد موسى عليه السلام ، اقترحوا عليه على أثر خروجهم من مصر ونجاتهم من الغرق الذى أهلك الله به فرعون وجنوده أن يجعل لهم آلهة لمجرد رؤيتهم بعض الوثنيين يعكفون على أصنام لهم وهم تجف أرجلهم من بلل الماء « وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم

يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبَّرٌ ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون » سورة الأعراف الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨ .

وقد طاوعوا السامرى على عبادة العجل ، وخالفوا هرون فى نهيهم عن ذلك بمجرد أن فارقهم موسى عليه السلام بعض أيام لميقات ربه « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار ألم يروا أنه لايكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين » سورة الأعراف الآية ١٤٨ .

ولم تذكر قصة فى سور كثيرة من القرآن الكريم كما ذكرت هذه القصة ، وتكررت بأساليب مختلفة وذلك لكثرة مافيها من عظات وعبرة ولصلتها بالمصريين وهم من أعرق الشعوب فى بناء الحضارة الإنسانية . وبالإسرائيليين وهم علة البشرية منذ وجدوا إلى اليوم رغم ماأنعم الله عليهم به من النعم الحسية والمعنوية ولكنهم أبوا إلا أن يبدلوا نعمة الله كفراً ويحلوا قومهم دار البوار ولله الأمر من قبل ومن بعد .

ذكر القرآن دعاوى فرعون الطويلة العريضة وتألهه على قومه « ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى » سورة النازعات الآيات ٢٣ — ٢٦ .

وذكر محاجة موسى لفرعون فى كثير من السور ومن أروعها وأجمعها فى إيجاز ماجاء فى سورة الشعراء من الآية ٢٣ إلى الآية ٥١ ، ولقد كانت لموسى مع هذه المهمة الدينية البحتة — مهمة محاربة الوثنية — مهمة أخرى سياسية هى تحرير بنى إسرائيل . وقد كان نجاحه فى الثانية أعظم بكثير من نجاحه فى الأولى ، وإن كان الله قد انتقم من الذين لم يؤمنوا به من فرعون وجنوده أفظع انتقام « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » .

قوم إلياس :

ومما يتصل بقصص بنى إسرائيل فى القرآن قصة إلياس عليه السلام مع قومه ، وقد كانوا يعبدون بعلا من دون الله ، وكانت مواطنهم حول مدينة بعلبك ، وإلى هذا الصنم نسبت « وبك » معناها البيت فهى بيت بعل ، واختلفوا فى بعل هذا فقالوا هو صنم وقالوا هو امرأة وقالوا غير ذلك ، وعلى كل فقد كانت أول مهمات إلياس عليه السلام أن يدعوهم إلى الله وينكر عليهم دعوة بعل هذا « وإن إلياس لمن المرسلين ، إذ قال لقومه ألا تتقون ، أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين الله ربكم ورب آبائكم الأولين ، فكذبوه فإنهم لمحضرون إلا عباد الله المخلصين » سورة الصافات الآيات ١٢٣ — ١٢٧ ، وإنما يتصل ذلك بقصص بنى إسرائيل لأن قوم إلياس بطن منهم وهو رسول من رسلهم بعد موسى عليه السلام .

الوثنية فى بلاد العرب :

وكانت الديانة الغالبة فى جزيرة العرب وبخاصة فى مكة وما جاورها ملة إبراهيم الحنيفية السمحة منذ بنى الكعبة ودعاهم إلى الله واستوطن إسماعيل هذه الديار وأصبح أبا العرب المستعربة ، ولكنهم بعد ذلك أصابهم ما أصاب غيرهم من عدوى الوثنية . قال الكلبى فى كتابه الأصنام « وكان الذى سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة ، أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصبابة بمكة ، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا بهم كطوافهم بالكعبة تيمناً منهم وصبابة بالحرم وحباً له ، وهم بعد ذلك يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون على إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، ثم سلخ بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه

واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره . فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم وانتجثوا (أى استخرجوا) ما كان يعبد قوم نوح عليه السلام منها على إرث مابقى فيهم من ذكرها وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم واسماعيل يتنسكون بها من تعظيم البيت والطواف به . . . فكان أول من غير دين اسماعيل عليه السلام عمرو بن ربيعة بن لحى أبو خزاعة ، مرض مرضاً شديداً فقيل له إن بالبلقاء حمة إن أتيتها برئت فأتاها فاستحم بها فبرىء ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال ما هذه فقالوا نستقى بها المطر ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة » اهـ .

ولقد تعددت الأوثان والأصنام ببلاد العرب وقبائلهم حتى كان لكل واحد منهم إله فى منزله فى بعض الأحيان ، وكان بعضها من الحجر وبعضها من الخشب وبعضها من الشجر وبعضها من البلح ، وربما كان للقبيلة الواحدة إله أو آلهة متعددة ، ولم يمنع ذلك من أن يكون هناك أصنام رئيسية تتمتع بالتقديس والتعظيم من كل القبائل أو معظمها ومن هذه الأوثان :

١ — مناه : وهو من أقدم أوثان العرب وقد يسمون بعبوديته فيقولون (عبد مناة) أو (زيد مناة) وكان منصوباً على ساحل البحر الأحمر ومن ناحية المشلل بقديد بين المدينة ومكة ، وكانت العرب جميعاً تعظمه وتذبح حوله ويهدون له ، ولم يكن أحداً أشد إعظاماً له من الأوس والخزرج . حتى كانوا لا يحلقون رؤوسهم بعد الحج ولا يحلون من إحرامهم إلا عنده ويرون ذلك من تمام الحج قال شاعرهم :

إنى حلفت يمين صدق برة بمناة عند محل آل الخزرج

والعرب تسمى الأوس والخزرج جميعاً الخزرج .

٢ — اللات : وكانت بالطائف وهى أحدث من مناة وكانت صخرة مربعة وكان يهودى يلت عندها السويق فسميت اللات ، وكان سدنتها من ثقيف بنو عتاب بن مالك وقد بنوا عليها بناء وكانت قريش والعرب جميعاً تعظمها وتسمى بها فيقولون (زيد اللات وعبد اللات) وهى المذكورة فى قول عمرو بن الجعيد .

فإني وتركى وصل كأس لكالذى تبرأ من لات وكان يدينها

وقد بعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب والمغيرة ابن شعبة بعد فتح مكة وإسلام ثقيف فهدمها وعفى على آثارها .

٣ — العزى : وهى أحدث من اللات ومناة ، وكان الذى اتخذها ظالم ابن أسعد وكانت بواد من نخلة الشامية يقال له حراض بإزاء الغمر عن يمين المصعد إلى العراق من مكة وذلك فوق ذات عرق ، وكانت أعظم الأصنام عند قريش ، يزورونها ويهدون إليها ويتقربون عندها بالذبح ويسمون بها ، وإليها نسب عبد العزى بن عبد المطلب وهو أبو لهب ، وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول « واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى فإنهن الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى ، وكان لها منحر ينحرون فيه هداياهم يقال له الغبغب وفيه يقول الهذلى :

رأى فزعاً فى عينها إذ يسوقها إلى غبغب العزى فوضع فى القسم

وكان سدنتها بنو شيبان بن جابر بن مرة من بنى سليم — واختلفوا فى ماهيتها فقيل صخرة — وقيل بيت — وقيل ثلاث سمرات (شجرات) متشابكة ولا مانع من أن تكون صخرة فوق هذه السمرات فى هذا البيت .

وقد بعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد رضى الله عنه بعد الفتح أيضاً فأزالها وهو يرتجز :

يا عز كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك

كانوا يقولون عن هذه الثلاثة إنهن بنات الله فرد القرآن عليهم هذه الدعوى الكاذبة فى سورة النجم : « أفرأيتم اللاتَ والعزّى ومناةَ الثالثة الأخرى ألكم الذكرُ وله الأنثى تلك إذن قسمةٌ ضيزى إن هى إلا أسماءٌ سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزلَ اللهُ بها من سلطان إن يتبعون إلا الظنَّ وما تهوى الأنفسُ ولقد جاءهم من ربِّهم الهدى » الآيات ١٩ ، ٢٣ .

وكان لهم على هذا النحو أصنام كثيرة منها « هبل » و « إساف » و « نائلة » و « سعد » و « ذو الشرى » و « الأقيصر » و « ذو الخلصة » . ومن طرائفهم أن أعرابياً أتى يستشير ذا الخلصة هذا ، وهو مروة بيضاء بتبالة بين مكة واليمن ، فى الأخذ بثأر أبيه وضرب الأزلام ، فخرج له القدح الناهى فغضب وضرب وجه الصنم بالقداح جميعاً وهو يخاطبه بقوله :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا مثلى وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا

وبعض المؤرخين ينسب هذه القصة الطريفة لامرىء القيس حين خرج يطلب بثأر أبيه حجر ، ويقول إن امرأ القيس خاطب الصنم حينذاك بقوله : « قبحك الله والله لو كان أباك ما قعدت من ثأره » .

* * *

ومن تقرير الحقيقة أن نقول إن العرب لم يكونوا يؤمنون بالأوثان إيماناً

واضحاً ولا عميقاً ، فهم تارة يعتبرونها آلهة ، وأخرى يعتبرونها بنات الله كما رأيت ، وثالثة يقولون إنها وسطاء وشفعاء « ما نعبُدهم إلا ليقرِّبونا إلى اللهِ زُلفىَ » . أو شركاه فى الألوهية مع استعلاء الله عليها بالملكية كما يقولون فى تلبيتهم : « لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك » . وأحياناً يكفرون بها ويحقرون من شأنها كما رأيت فى قصة ذى الخلصة ، فلم يكن لهم فيها رأى ثابت واضح .

وهذا ما دعا كثيراً من عقلائهم إلى التنزه عن عبادتها كزيد بن نفيل ، وأمية بن أبى الصلت . وقس بن ساعدة ، وغيرهم من الحنفاء الذين أنفوا من الوثنية وتلمسوا طرق الهداية فى غيرها من المعتقدات . ومما ينسبون من الشعر لزيد بن نفيل :

عزلت اللات والعزى جميعاً ... كذلك يفعل الرجل الصبور

فلا العزى أدين ولا ابنتيها ... ولا صنمى بنى عمرو أزور

ولكن أعبد الرحمن ربى ... ليغفر ذنبى الرب الغفور

ومن هؤلاء من أدرك الإسلام ولم يسلم كأمية بن أبي الصلت ، ومنهم من أثنى عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وبشر بنجاته وفوزه كورقة بن نوفل وقس بن ساعدة .

الرسالة الثالثة

فى التفسير

— ١ —

مقدمات*

القرآن الكريم :

«كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم وخبرما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » الترمذى عن على رضى الله عنه مرفوعا .

ذلكم هو القرآن الكريم وقد أنزله الله على نبيه صلى الله عليه وسلم ليتلوه المؤمنون فتنشرح بهذه التلاوة صدورهم ، وتستنير أفئدتهم وقلوبهم ،

(*) نشرت بالعدد الأول من مجلة الشهاب الصادر فى غرة المحرم ١٣٦٧ هـ (١٤ نوفمبر سنة ١٩٤٧ م) .

وينالوا به مثوبة الله يوم القيامة ، وما تقرب أحد إلى الله تبارك وتعالى بمثل كلامه . ثم ليكون بعد ذلك دستور حياتهم ونظام مجتمعهم ، يرسم لهم طرائق الحياة السعيدة فى هذه الحياة الدنيا ، وطرائق الفوز والنجاة فى العقبى « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » سورة النحل الآية ٩٧ « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى » سورة طه الآية ١٢٤ .

فليس المقصود من القرآن مجرد التلاوة أو التماس البركة وهو مبارك حقاً ، ولكن بركته الكبرى فى تدبره وتفهم معانيه ومقاصده ، ثم تحقيقها فى الأعمال الدينية والدنيوية على السواء ، ومن لم يفعل ذلك ، أو اكتفى بمجرد التلاوة بغير تدبر ولا عمل فإنه يخشى أن يحق عليه الوعيد الذى يرويه البخارى عن حذيفة رضى الله عنه : « يا معشر القراء استقيموا فقد سبقتم سبقاً بعيداً ، وإن أخذتم يميناً وشمالا لقد ضللتم ضلالا بعيداً » .

الحاجة إلى التفسير :

ولهذا كانت الحاجة ماسة إلى التفسير المفهم الذى تتضح به المعانى والمقاصد بحسب مدارك البشر وما تتسع له عقولهم ، وإن كان القرآن فى الحقيقة قد يسره الله للناس تيسيراً عجيباً « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » سورة القمر الآية ١٧ « فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً » سورة مريم ٩٧ « فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون » سورة الدخان الآية ٥٨ ، ولكنه بعد تبلبل الألسنة وفشو اللحن وانتشار العامية والبعد عن الفصحى ، صار الناس فى حاجة إلى تفسير الألفاظ والتراكيب

التى قد يغيب معناها عن أذهانهم أو يخفى مدلولها عن إدراكهم ، هذا مع أن القرآن الكريم هو دستور الدين والدنيا . وقد ضمنه الله من علومها وما يتصل بهما من المعارف ماتتفاوت فى إدراكه عقول الناس ، وما لايزال الزمن والبحث يكشف عن درره وجواهره ويبين من غرائبه وعجائبه ، « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » سورة فصلت الآية ٥٣ وسئل على كرم الله وجهه : هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء أهل البيت ؟ قال : لا إلا فهماً أوتيه رجل فى كتاب الله ، وما فى هذه الصحيفة . وعرض عليهم صحيفة فيها بعض الأحكام . ومن هنا نشأ علم التفسير بسيطاً ، ثم ما زال الناس يتوسعون فى شأنه حتى ورثنا مجموعة ضخمة من التفسير كان بعضها هداية ونوراً ، وكان بعضها موسوعات علمية فيها كل شىء إلا تفسير القرآن .

عناية السلف به :

وكان السلف رضوان الله عليهم يهتمون بتعرف مقاصد القرآن الكريم ، ويرون الفضل لمن علم شيئاً من تفسيره ، فعن على رضى الله عنه أنه ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم ، فقال له رجل : جعلت فداءك ! تصف جابراً بالعلم وأنت أنت ! فقال إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى : « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » وقال مجاهد : أحب الخلق عند الله تعالى أعلمهم بما أنزل . وقال الحسن : والله ما أنزل الله آية إلا أحب أن يعلم فيما أنزلت وما يعنى بها . وقال الشعبى : رحل مسروق إلى البصرة فى تفسير آية فقيل له : إن الذى يفسرها رحل إلى الشام فتجهز ورحل إلى الشام حتى علم تفسيرها . وقال عكرمة فى قوله عز وجل . « ومن يخرج من بيته

مهاجراً إلى الله ورسوله » طلبت اسم هذا الرجل أربع عشرة سنة حتى وجدته وقال ابن عبد البر هو ضمرة بن حبيب . وقال ابن عباس : مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يمنعنى إلا مهابته فقال : هى حفصة وعائشة . وقال إياس بن معاوية : مثل الذين يقرأون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلاً وليس عندهم مصباح فتداخلتهم روعة ولا يدرون ما فى الكتاب ، ومثل الذى يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرأوا ما فى الكتاب »[1] .

التفسير بالرأى :

ومع هذا التعظيم لقدر التفسير والمفسرين الذين يعلمون فيم أنزلت الآيات وماذا أريد بها ، فإن السلف رضوان الله عليهم كانوا يتحرون دائماً فى التفسير ألا تتحكم فيما يفهمون من الآيات أغراض خاصة ، أو أهواء شخصية ، أو ظروف طارئة . ولكنهم كانوا يجردون أنفسهم من كل ذلك حتى يكون القرآن أميراً على تصرفاتهم ويكون هواهم تبعاً لما جاء به رسولهم صلى الله عليه وسلم . وهو صريح الإيمان ومن هنا كان الكثير منهم يتحرج من التفسير ويخاف أن يقول فى القرآن برأيه .

قال ابن عطية : « وكان جلة من السلف الصالح كسعيد بن المسيب ، وعامر الشعبى وغيرهما يعظمون تفسير القرآن ويتوقفون عنه تورعاً واحتياطاً لأنفسهم مع إدراكهم وتقدمهم » ، قال أبو بكر الأنبارى : وقد كان الأئمة من السلف الماضى يتورعون عن تفسير المشكل من القرآن ، فبعض يقدر أن

---

(١) مقدمة تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن .

الذى يفسره لايوافق مراد الله عز وجل فيحجم عن القول ، وبعض يشفق من أن يجعل فى التفسير إماماً يبنى على مذهبه ويقتفى طريقه . فلعل متأخراً يفسر حرفاً برأيه ويخطىء فيه ويقول إمامى فى تفسير القرآن بالرأى فلان الإمام من السلف . وعن أبى مليكة قال : سئل أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى تفسير حرف من القرآن ، فقال : أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى ، وأين أذهب ، وكيف أصنع إذا قلت فى حرف من كتاب الله بغير ما أراد الله تبارك وتعالى ؟. وروى الترمذى وأبو داود من حديث جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » (١) .

والمراد بالقول بالرأى هنا أن يقول بغير علم خجلا أو تورطاً أو هروباً من الوصف بالجهل أو أن يتحكم الهوى ، وتتغلب الأغراض فتجور بصاحبها عن نهج الصواب وتعدل به عن طريق الحق فلو أصاب أحدهم مع هذه النية فقد أخطأ وأثم ، ولا شك أن الذين يجتهدون فى تحرى الحق متجردين له من أهوائهم فهم مثابون ، إن أخطأوا فلهم أجر ، وإن أصابوا فلهم أجران إن شاء الله . وبهذا يجمع بين رغبة السلف فى التفسير وتعظيمهم لقدر المفسرين وبين خوفهم من القول فى القرآن بالرأى — وما ورد من النهى عن ذلك .

تأثير أسلوب التفسير بالثقافات والعصور المختلفة :

ولا شك أن أسلوب التفسير قد تأثر بالتطورات الاجتماعية والثقافية فى

---

(١) مقدمة تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن .

العصور الإسلامية المختلفة ، فبدا أول مابدأ هيناً يسيراً ساذجاً . يتناول بعض الآيات وبعض الألفاظ والوقائع لاستغناء الناس عن ذلك بسليقتهم العربية وذوقهم اللسانى الذى مازال متمكناً منهم ، وما زالوا مقيمين عليه واكتفاء بالسنة العملية التى شاهدوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع أصحابه والتابعين لهم بإحسان .

وجاء عصر التدوين والقصص فكتبت فى التفسير رسائل لا تعدو أن تكون روايات منقولة وأقاصيص منها ما هو صحيح يتصل بأسباب النزول ووقائع الأحكام ، ومنها ما هو منقول عن أهل الكتاب فيه الغث وفيه السمين ، وعرف بذلك مفسرون ، ووضعت كتب على هذا الأسلوب الذى يعرف بأسلوب الرواية أو « التفسير بالمأثور » لا شك أن من أعظمها وأجلها وأبقاها وأنفعها وأغزرها مادة تفسير الإمام محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ واسمه « جامع البيان فى تفسير القرآن » .

وجاء عصر الترجمة والفلسفة والاتصال بعلوم الفرس واليونان ووقع الخلاف بين فلاسفة الإسلام وعلمائه فى كثير من الشئون العقدية والفروع الفقهية وما إلى ذلك ، فنحت كتب التفسير نحو هذا الأسلوب من حيث تضمنها لكثير من النظرات الفلسفية والاستدلال بالآيات على الآراء والمذاهب العقدية المختلفة ، بل إن كثيراً من المفسرين كان يجتهد أن يستنبط من الآية ما يوافق مذهبه فى الفروع ، وذلك أمر طبيعى ، وكثير من كتب التفسير إنما كان الدافع إليه مجرد الرد على بعض الكتب السابقة ، ويرى ذلك واضحاً فى تفسير الفخر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ والمسمى « مفاتيح الغيب » ، وفى تفسير الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ وهو المسمى « بالكشاف »

وأضرابهما ، ويطلق بعض الباحثين على هذا الأسلوب « التفسير بالمعقول » .

وكثيراً ما تناول بعض اللغويين تفسير القرآن الكريم فصرفوا وجههم إلى النكات البلاغية والتوجيهات اللغوية والاستعمالات النحوية وهكذا . . . كما ترى ذلك فى تفسير الزجاج والواحدى وأبى حيان الأندلسى . وما زال بين يدينا كتاب المفردات للراغب الأصفهانى من رجال القرن السادس الهجرى .

* * *

واتجهت وجهة كثير من المفسرين العصريين إلى مسايرة النهضة العلمية وبيان ما تناوله القرآن وأشار إليه من أصول العلوم الكونية ونواميسها ومظاهرها كما فعل ذلك الأستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره « الجواهر » . كما اتجهت وجهة آخرين إلى بيان السنن الاجتماعية ، وأساليب الهداية النفسية ، وأسباب التطورات التاريخية ، واستنباط ذلك من آيات القرآن الكريم ليكون حافزاً للمسلمين إلى استعادة مجدهم بالقرآن ، وربط حياتهم الاجتماعية بتعاليمه وشرائعه ، كما فعل الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، واقتفى أثره وارثه وتلميذه السيد محمد رشيد رضا رحمهما الله فى تفسير المنار .

وهكذا نجد أن أسلوب التفسير يتجدد مع كل مفسر ومع كل عصر بحسبه ، وذلك أمر طبيعى كما قدمنا ، فإنما يصور المفسرون بالتفسير ما فهموا من كتاب الله ، وأداة فهمهم عقولهم ، ومادة علمهم بيئتهم ومعارف عصرهم ، فكان لزاماً أن يظهر ذلك كله جلياً فى نفثات أقلامهم ومعرض آرائهم .

ولا نريد أن نتناول هنا جميع كتب التفسير بالوصف والتحليل ، فذلك ما لا نقصد إليه ولا هو من مواد هذا البحث وحسبنا ما ذكر على سبيل المثال .

مزالق المفسرين :

وهذا التأثر فى أسلوب التفسير بثقافات المفسرين وعصورهم كثيراً ما يجر بعضهم إلى مزالق الخطأ ، وينحرف بهم عن جادة الصواب فى الفهم أو التعبير ، وبخاصة إذا لم يكونوا قد تمرسوا بالدرسات ات الشرعية واللغوية والدينية التى تعين على صحة الفهم ، وإدراك المقصد ووضوح العبارة ، ولهذا رأينا المستشرقين أفحش خطأ من غيرهم كلما تناولوا الحديث عن القرآن لضعف مادتهم اللغوية وبعدهم عن التمكن من الدراسات الإسلامية الصحيحة ، وهذا فى المخلصين للبحث الحر منهم ، فما بالك بالمغرضين ؟ ! ثم يتلوهم الباحثون الذين لم يأخذوا بحظ وافر من هذه الدراسات .

وكثيراً ما يكون مظهر الخطأ الفاحش صياغة العبارة وقصورها عن الوفاء بالمراد بحيث لو صيغ هـذا المعنى فى عبارة أدق وأحكم لكان أدل على غرض الكتاب وأوفى بمقصده ، مع تمشيه مع الأدب اللازم فى معالجة مثل هذه البحوث ، ومسايرته للحق والمنطق والصواب . ولعل من المفيد أن نلم إلمامة وجيزة ببعض هـذه المزالق فى أساليب الكاتبين عن مقاصد القرآن المختلفة لعل فيها تحذيراً وتبصرة ، فهناك :

(ا) فى القصص والمعجزات :

يتناول القرآن الكريم قصص الأنبياء والمرسلين ويذكر طرفاً من معجزاتهم ، ومن المقرر أنه ليس الغرض من ذلك استقراء الوقائع ولا تحديد الأزمان ، ولا تناول الظروف والملابسات ، ولا تسجيل مجرد الحوادث والأشخاص ، ولا البحث التاريخى الإصطلاحى والفنى ، وإنما الغرض من ذلك

الهداية والعظة والعبرة ، وتقرير قواعد هذه الهداية فى النفوس بذكر هذه القصص وعرض وقائعها أمام السامعين والقارئين ، والقرآن الكريم يصرح بهذا فى وضوح فيقول : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » سورة يوسف الآية ١١١ .

ومن المقطوع به كذلك عند كل مسلم أن كل ما ذكره القرآن فى هذه الناحية حق لا شك فيه ، وأن علم التاريخ الاصطلاحى لا يمكن أن يأتى بحقيقة تخالف ما جاء فى قصة من القصص التى ذكرها القرآن الكريم ، نعم إنه قد يعجز عن أن يصل بوسائله الفنية المجردة إلى بعض ما ذكره القرآن الكريم ، فيكون ما ذكره القرآن الكريم زائداً عن علم التاريخ المجرد ، وقد يعجز التاريخ المجرد عن أن يجد الدليل بأسلوبه الخاص على ما ورد فى القرآن الكريم . ولكن يجب أن يلاحظ أن عجز علم التاريخ عن المعرفة أو الاستدلال ليس معناه عدم صحة ما جاء فى القرآن ، فليس انتفاء العلم بالشىء دليلا على عدم وجوده .

وهنا المزلق . فالمؤرخون قسمان : قسم لا يؤمن بالقرآن الكريم ولا يتخذ وحيه ديناً . وهذا يقول إن القرآن لا يصح أن يكون عنده كتاباً تاريخياً يعتمد عليه فى بحوثه الفنية المجردة عن أى اعتبار آخر ، وهو معذور فى هذا القول ، ولا ينتظر منه غيره ، لأنه لم يلتزم التصديق والإيمان بالقرآن من قبل ، وقسم آمن بالقرآن وقام عنده الدليل على صدقه . وعليه حينئذ واجبان : أولهما أن يكون أصدق الأدلة التاريخية عنده وأثبتها ما جاء فى هذا القرآن عن الأمم والعصور التى أرخ لها أو تناولتها آياته ، وثانيهما أن يرد عنه تكذيب الصنف الأول إن حاولوا ذلك أو أرادوه ، وأن يقيم لهم الدليل

على خطئهم بالأسلوب التاريخى الفنى ولن يعجزه ذلك متى أراده .

ولكن بعض الباحثين من هذا القسم يحلو له أن يتشبه بأولئك . فيجرد من شخصيته المؤمنة بالقرآن شخصية أخرى يدعى أنها تاريخية بحته لا تهتم بأى اعتبار آخر ثم يمضى فى بحثه متقمصاً هذه الشخصية الجديدة وينسى تماماً شخصيته الأولى فيزل ويهوى ولو عاد فذكر شخصيته المؤمنة ، وعقب على بحثه المجرد بما يفيد إيمانه بصدد هذا التاريخ القرآنى ، ثم ناضل عن ذلك ودعمه بالأسلوب العلمى لقام ذلك عذراً له أمام إيمانه أولا ، وأمام الناس بعد ذلك ولأستحق الشكر والثناء .

زل الدكتور طه حسين بك فى هذا المزلق حين انتحل من قبل ما قاله أحد المستشرقين « للتوراة أن تحدثنا عن إبرهيم وإسماعيل وللانجيل أن يحدثنا عنهما وللقرآن أن يفعل ذلك ولكن هذا لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى بهذا الدليل » ، وثار الناس وهم محقون ، ولو قال بعد ذلك : « ولكنى كمؤمن بالقرآن الكريم ، أثبت وجودهما التاريخى بهذا الدليل وإذا كان البحث التاريخى المجرد بأدلته الفنية الخاصة لم يصل إلى إثبات شىء عن إبراهيم وإسماعيل فذلك لقصور قد يكشفه الزمن ، وقد نصل فى المستقبل إلى ما عجزنا عنه الآن كما يحدث ذلك دائماً ، وأخيلة الأمس حقائق اليوم وأخيلة اليوم حقائق الغد ، وحسب الكتب السماوية أن تضع أيدينا على طرف الحبل وعلينا بعد ذلك تمام البحث . ومن أنكر ذلك من المستشرقين فهو متجن على العلم فليس توقف العقل عن حكم دليلا على الاستحالة » لكان محققاً ، وكان محقاً ، وكان جامعاً بين تحليل العالم العصرى واعتقاد المؤمن القوى ، ولما ثار الناس به وثار هو كذلك بالناس .

وهذا الكاتب الجديد صاحب رسالة القصص الفنى فى القرآن التى لم تظهر للناس بعد وإنما ظهر منها طرف تناولته الصحف نحا هذا النحو . ولكن فى واد أدبى متصل بالتاريخ ، فهو يريد أن يقول إن رعاية الناحية الفنية عند الأديب المجرد لا تستلزم صدق الرواية ولا صحة الواقعة ، وهذا حق ، بل إنه كثيراً ما يتجلى فن الأديب فى المبتكر من الحوادث والمتخيل من الروايات أكثر مما يتجلى فى رواية الوقائع الصادقة الحفة . بصرف النظر عما يقوله المربون وعلماء النفس فى خطر هذا الأسلوب على التكوين الفكرى والنفسانى للأشخاص ثم هو يريد بعد هذا أن يجرد من نفسه أديباً بعيداً عن كل اعتبار آخر ، ويجرد من القرآن كتاب أدب بعيداً عن كل اعتبار آخر كذلك ، وينظر فيه على هذا الأسلوب بصرف النظر عن صدق هذه القصص ومطابقتها للواقع والتاريخ أو مخالفتها لذلك كله . ولو قال إنه يتخذ هذا البحث وسيلة إلى إثبات سمو الناحية الفنية فى كتاب الله وعمقها . وإنه كمؤمن بالقرآن الكريم يصدق بأن هذه الوقائع جميعاً لا بد أن تكون حقائق تاريخية ، وذلك مما يزيد فى روعة التصوير ودقة الفن . ولا عجب فهو « صنع الله الذى أتقن كل شىء » لو قال هذا لاستراح وأراح . ونفى عن نفسه وعن الذين يقرءون له لوثات الزيغ والضلال ، وقل مثل ذلك فى مثل هذه المناحى جميعاً .

هذا من حيث التاريخ والأدب مع القصص القرآنى والحوادث التاريخية فيه ، أما المعجزات والقصص الغريبة التى لم تأت على حسب مألوف الناس . ووفق ما يعرفون من النواميس العادية كقصة أهل الكهف وقصة الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها . فذلك بحث آخر سنفرده بالكلام فى أول مناسباته إن شاء الله ، وإنما نقصد إلى التنبيه لمثل هذا المزلق وللاستقراء بعد ذلك موضعه بتوفيق الله .

(ب) فى العلوم الكونية :

من المقرر أن القرآن الكريم لم ينزل ليكون كتاب هيئة أو طب أو فلك أو زراعة أو صناعة ، ولكنه كتاب هداية وإرشاد ، وتوجيه اجتماعى إلى أمهات المناهج الاجتماعية التى إذا سلكها الناس سعدوا فى دنياهم وفازوا فى آخرتهم ، وهو إنما يعرض للعلوم الكونية ولمظاهر الوجود المادية الطبيعية بالقدر الذى يعين على الإيمان بعظمة الخالق جل وعلا ويكشف عن بديع صنعه . وعما أودع فى هذا الكون من المنافع والفوائد لبنى الإنسان حتى ييسر لهم بذلك طرائق الاهتداء إلى الإستفادة عن هذه الخيرات فى الأرض وفى السماء وفيما بين ذلك ، ثم ترك بعد ذلك للعقل الإنسانى أن يجاهد ويكافح فى سبيل الكشف عن مساتير هذا الوجود والإستفادة مما فيه من قوى ومنافع وحث على ذلك وجعل هذا من أفضل العبادة وأعلى أنواع ذكر الله « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » سورة يونس الآية ١٠١ .

« إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » سورة آل عمران الآية ١٩٠ ، ١٩١ .

* * *

ولقد ذهب كثير من المؤلفين والمفسرين فى القديم والحديث إلى أن القرآن الكريم قد تضمن كل أصول العلوم الكونية وحاولوا أن يصلوا إلى ذلك بتطبيق آيات الخلق والتكوين وما إليها على ما عرف الناس من هذه العلوم ، ومن هؤلاء الإمام الغزالى قديماً فى جواهر القرآن . والشيخ

طنطاوى جوهرى حديثاً فى تفسيره الجواهر ، والدكتور عبد العزيز اسماعيل فى كتابه عن القرآن والطب ، وأمثالهما . وهو جهد مشكور ولا شك ، ولكنه تكليف بما لم يكلفنا الله به قد يصل فى كثير من الأحيان إلى التكلف ، وخروج بالقرآن عما نزل له من الهداية والإصلاح الاجتماعى وتقرير قواعدهما فى النفوس والمجتمعات . وتعريض لمعانى كتاب الله تبارك وتعالى لاختلاف الآراء . وتضارب المقررات العلمية واختلاف أقوال العلماء ، ولهذا كره بعض السلف هذا المعنى وأشار إليه ، كما فعل ذلك الشاطبى فى الجزء الثانى من الموافقات وناقشه مناقشة دقيقة خلص منها إلى « أن القرآن لم يقصد فيه تقرير لشىء من هذه العلوم وإن كان قد تضمن علوماً هى من جنس علوم العرب أو ما ينبنى على معهودها مما يتعجب منه أولو الألباب ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة دون الاهتداء بإعلامه ، والاستنارة بنوره أما أن فيه ما ليس من ذلك فلا » .

* * *

ومن المقرر كذلك أن القرآن قد تعرض لكثير من مظاهر هذا الوجود الكونية ، فتناول خلق الإنسان ، وتكوين الأرض والسماء ، وجريان الشمس والقمر ، وتسخير الكواكب والنجوم والأفلاك وتراكم السحاب ونزول المطر ، وظاهرة الرعد والبرق ، ونمو النبات وتنوع أصنافه ، وعجائب البخار وأعلام الطريق والجبال الرواسى على هذه الأرض ، وأطوار الأجنة فى بطون أمهاتها ، إلى غير ذلك مما يتناوله علماء الكون بالتمحيص والبيان وما هو موضوع بحوثهم ومحل عنايتهم وتجاربهم .

وكثيراً ما تختم هذه الآيات بالحث على التعقل والتفكر والنظر والتدبر .

وإشارة إلى أن القرآن الكريم لم يقصد بهذا التعرض تقرير أصول هذه العلوم أو تناول فروعها . ولكنه إنما قصد إلى الهداية ، وتوجيه الأنظار والنفوس إلى ما تدل عليه من عظمة الخالق وفائدة المخلوق .

ولكن الذى لا يمكن أن يكون محل نزاع هو أن القرآن حين أشار إلى هذه النواميس الكونية والمظاهر الوجودية المادية ، كان من دقة التعبير وصدق التصوير بحيث لا يمكن أبداً أن يصطدم بما يكشف العقل الإنسانى عنه فى أطواره المختلفة من حقائق هذه العلوم ومقرراتها ، وخصوصاً إذا لاحظنا أن هذه المقررات العلمية تنقسم إلى قسمين : قسم تظاهرت عليه الأدلة وتوافرت الحجج حتى كاد يلحق بالبديهات ، وقسم لا زال فى طور البحث العلمى وكل الذى بين يدى العلماء الكونيين منه فروض تؤيدها بعض القرائن التى لم ترق إلى مرتبة الأدلة القاطعة أو الحجج المقنعة . فما كان من القسم الأول فلا شك أن ما أشار إليه القرآن الكريم منه يوافق كل الموافقة ، ويطابق كل المطابقة ، ما عرفه العلماء الكونيون ، حتى أنه من الحق أن يقال إن ذلك من إعجاز هذا الكتاب الذى جاء به أمى لم يتعلم فى مدرسة ولم يلتحق بجامعة من الجامعات ! ومن أمثلة ذلك إشاراته إلى أطوار الجنين ، وتلقيح الرياح . وتكون السحاب وصلته بالرياح إلخ ... وما كان من القسم الثانى فمن التجنى وظلم الحقيقة أن يوازن بينه وبين ما جاء فى القرآن الكريم . فلننتظر حتى يطمئن العلم الكونى إلى ما بين يديه ، ويؤمن العقل الإنسانى بما وصل إليه . ثم ننظر على ضوء هذا الإيمان إلى النص القرآنى ولن نجدهما إلا متعاونين على تثبيت دعائم الحقيقة « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد »

سورة فصلت الآية ٥٣ ومن هذا القبيل ما يتصل بنشأة الإنسان وحقيقة الحياة وبدء التكوين وصلة الأرض بالسماء ، على أنه من عجيب أمر هذا القرآن أنه حتى فى مثل هذه المواطن يسوق التعبير سوقاً عجيباً معجزاً فى مرونة عبارته ودقة إشارته ، حتى أنه ليساير بحق تطور العقل الإنسانى فى كل زمان ومكان . وتأمل تصويره لنهاية العالم المادى ووصفه للقيامه وآثارها فيه تر أنه أتى فى ذلك بالعجب العاجب !

وهنا المزلق . فإن كثيراً من الكاتبين فى هذه المعانى والناظرين إليها يكتبون وينظرون وقد آمنوا إيماناً لا شك فيه بصحة هذه الفروض العلمية ، واعتبروها حقائق بديهية مقررة لا نقض فيها ولا إبرام ، وهم مع هذا الخطأ لا يكلفون أنفسهم دقة النظر فى نصوص القرآن ولطف التركيب فى عباراته وسر الوضع فى ألفاظه ، فيتورطون فى الحيرة أحياناً وفى التكذيب أحياناً أخرى . فما دام داروين عندهم قد قرر أن الإنسان لابد أن يكون مشتقاً من حيوان آخر ، فليس للقرآن أن يقول إنه من طين أو صلصال كالفخار حتى لا يصطدم بالكشوف العلمية ، وفاتهم أنهم لم يحيطوا بما قال داروين ، ولم يطالعوا ما كتب خصوم نظريته فى هدمها وإبطالها وبخاصة فى هذه الناحية بالذات وما ذكره بعض العلماء من نظريات تعاكسها تماماً . كما فاتهم سر تركيب القرآن فى قوله « الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعله نطفة من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه . وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون » الآيات ٧ ، ٨ ، ٩ سورة السجدة وفى قوله : « مالكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً » سورة نوح الآيتان ١٣ ، ١٤ والحق والإنصاف أن يسلموا بصدق هذه الآيات

الكريمة تمام الصدق ، وأن ينتظروا ما ينتهى إليه علم الناس ثم ينظروا بعد ذلك « والله غالب على أمره » « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » وهذه إشارة عابرة إلي الموضوع يأتى تفصيلها فى موضعه إن شاء الله .

(ج) فى السمعيات وصفات الله تبارك وتعالى :

ومما يلحق بذلك ويشبهه ماذكره القرآن الكريم مما يسمى فى اصطلاح النظار والمؤلفين بالسمعيات . ومن ذلك الجن، والملائكة ، وأحوال الموت ، والقبر ، والبعث والجزاء والجنة والنار الخ .. ثم صفات الله تبارك وتعالى ، فلقد تناول القرآن الكريم هذه الموضوعات بكثير من الإفاضة والإسهاب . فذكر الجن فى عدة مواطن ووصفهم بالفقه والفهم والإيمان ، والقدرة على مايعجز عنه البشر فى كثير من الأحيان ، وذكر الملائكة ووصفهم بأوصاف عدة فى كثير من الآيات ، وأفاض فى ذكر الموت وأحواله وما بعده من بعث ونشور وحساب وجزاء : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » سورة الزلزال آية ٧ و ٨ ، ثم عرض لصفات الله تبارك وتعالى فوصفه بالكمالات كلها . ونزهه سبحانه عن أوصاف النقص جميعاً ، ونفى عنه المشابهة لخلقه والمماثلة لغيره « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » سورة الشورى الآية ١١ « ولم يكن له كفواً أحد » سورة الإخلاص ٤ كما جاءت الآيات وفيها ذكر الاستواء على العرش واليد والوجه والأعين مضافة إليه سبحانه .

ولا شك أن ماذكره القرآن من أحوال هذا العالم غير المادى ثم من صفات البارى جل وعلا كلها لاتدخل فى حدود نواميس المادة ولا قواعد

عالمها والعقل الإنسانى لازال إلى اليوم عاجزاً عن إدراك مايحيط بالمادة نفسها من قوى وأسرار فكيف بما هو وراءها .

وهنا المزلق ، فكثير من الناظرين فى معانى الكتاب الكريم يعز عليه أن يسلم بوجود شىء لم يصل عقله بعد إلى حقيقته ، فما هؤلاء الجن الذين تخفى علينا حقيقتهم ؟ وما هذه الملائكة التى لاندرى كنهها ؟ وما هذا البعث بعد أن تحللت عناصرنا المادية وردت إلى أصولها الأولية ؟ وما هذه الأرواح المزعومة فى هذه الأجساد ، ونحن لانحس إلا بهذه العوامل المادية تتصرف فى أبداننا ؟ فالبرد يؤذينا ، والحر يؤذينا ، والسم يقتلنا ، والطعام يقوينا ، والهواء ينعشنا ، وكلها من عالم المادة ، وهم أمام هذه النظرة الضيقة يزلون فمنهم من ينكر ذلك جملة ، ومنهم من يتعسف فى التأويل فينكر الحقيقة ويذهب إلى أنها تمثيل أو تخييل ، وكلاهما أخطأ الطريق وضل سواء السبيل.

وهم لو أنصفوا لعرفوا أن من خصائص العالم الألمعى أن يعترف بالعجز والقصور فيما لم يصل إليه علمه . إن ما كشفه العقل الإنسانى إلى اليوم بالنسبة إلى ما لم يكشف عنه من أسرار هذا الوجود شىء يسير لا يكاد يقام له وزن كجزيرة صغيرة فى وسط محيط عظيم ، ولقد اعترف بذلك وبأكثر منه أكابر علماء الكون ، وسيمر بنا من ذلك الكثير ، حتى أن بعضهم ليقول « إن من خصائص العالم العصرى أن يكون متواضعاً وجريئاً ، متواضعاً لأنه لم يصل إلى شىء يذكر من أسرار هذا الوجود ، وجريئاً لأن المجهولات التى أمامه من الكثرة بحيث لايفيد فى الكشف عن بعضها إلا الجرأة » ، فالتكذيب بمثل هذه السمعيات لمجرد أنها لم تدرك بالحواس البشرية مع دخولها فى حيز الإمكان الفعلى ظلم صارخ وضلال مبين ، والتأويل تكلف

لامبرر له ، والإيمان بها مع عدم التكلف فى تصور حقيقتها هو الصراط المستقيم ، وأما ما أحاط بهذه المعاني فى بعض الكتب أو الأذهان من صور خرافية ، ومن أقاصيص خيالية . وأوصاف روائية لم ترد فى كتاب ولا سنة ولا ثبتت من طريق صحيح ، فليس من هذا البحث فى شىء ، ويجب على كل مؤمن ألا يقيم له وزناً ، ولا يرفع به رأساً .

ومن الناس من يحاول أن يقرب هذه المعانى إلى أذهان غيره من المتشككين الذين لم تشرق بعد أنوار الإيمان على صدورهم فيتصرف فى الألفاظ ، ويتجوز فى التصوير ، فعليه إن فعل ذلك أن يردفه بما يفيد تصديقه الكامل بما جاء عن هذه العوالم فى القرآن الكريم ، وأن يصارح بذلك أولئك المتشككين ، بعد أن يخطو بهم الخطوة الأولى للأفهام والتقريب ، حتى لايقف بهم أو يقف معهم فى وسط الطريق .

وليست هذه الصورة جديدة فى البحوث الإسلامية الدينية ، بل إنها لتتكرر منذ ترجمت الفلسفة ، وأدمجت فى علوم الإسلام إلى اليوم ، والموفق من شرح الله صدره للايمان فهو على نور من ربه .

أفضل التفاسير وأقرب طرائق الفهم :

وبعد فلقد سألنى أحد الإخوان عن أفضل التفاسير وأقرب طرق الفهم لكتاب الله تبارك وتعالى ؟ فكان جوابى على سؤاله هذا هذه الكلمة « قلبك » فقلب المؤمن لاشك هو أفضل التفاسير لكتاب الله تبارك وتعالى ، وأقرب طرائق الفهم أن يقرأ القارىء بتدبر وخشوع ، وأن يستلهم الله الرشد والسداد ، ويجمع شوارد فكره حين التلاوة ، وأن يلم مع ذلك بالسيرة النبوية المطهرة ، ويعنى بنوع خاص بأسباب النزول وار تباطها بمواضعها

من هذه السيرة فسيجد فى ذلك أكبر العون على الفهم الصحيح السليم ، وإذا قرأ فى كتب التفسير بعد ذلك ، فللوقوف على معنى لفظ دق عليه أو تركيب خفى أمامه معناه أو استزادة من ثقافة تعينه على الفهم الصحيح لكتاب الله . فهى مساعدات على الفهم ، والفهم بعد ذلك إشراق ينقدح ضوءه فى صميم القلب . ومن وصايا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمة الله لبعض تلامذته « وأدم قراءة القرآن ، وفهم أوامره ونواهيه ، ومواعظه وعبره كما كان يتلى على المؤمنين أيام الوحى وحاذر النظر إلى وجوه التفاسير إلا لفهم لفظ غاب عنك مراد العرب منه أو ارتباط مفرد بآخر خفى عليك متصله ، ثم اذهب إلى مايشخصك القرآن إليه ، واحمل نفسك على مايحمل عليه » ولا شك أن من أخذ بهذه الطريقة سيجد أثرها بعد حين فى نفسه ملكة تجعل الفهم من سجيته ونوراً يستضىء به فى دنياه وآخرته إن شاء الله .

فاتحة الكتاب*

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، إهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين » .

فضلها :

روى الإمام أحمد فى مسنده عن أبى سعيد بن المعلى رضى الله عنه قال : « كنت أصلى فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم أجبه حتى صليت ، فأتيته ، فقال : « ما منعك أن تأتينى » ؟ قال : قلت يا رسول الله إني كنت أصلى ، قال : ألم يقل الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » الآية ثم قال : « لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد ، قال : فأخذ بيدى فلما أراد أن يخرج من المسجد ، قلت : يا رسول الله انك قلت لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن ، قال نعم : « الحمد لله رب العالمين » هى السبع المثانى ، والقرآن العظيم الذى أوتيته » ورواه البخارى وأبو داود والترمذى والنسائي وابن ماجه .

وروى أحمد فى مسنده والبيهقى فى الشعب وذكره السيوطى فى « الدر المنثور » عن عبد الله بن جابر رضى الله عنه أنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أخبرك بأخير سورة نزلت فى القرآن » ؟

(*) نشرت بالعدد الثانى من مجلة الشهاب الصادر فى غرة صفر ١٣٦٧ هـ (١٤ ديسمبر سنة ١٩٤٨ م) .

قلت : بلى يارسول الله ، قال : « فاتحة الكتاب » وقال « فيها شفاء من كل داء » ، وروى على ابن أبى طالب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فاتحة الكتاب ، وآية الكرسى ، وشهد الله أنه لا إله إلا هو ، وقل اللهم مالك الملك » ، هذه الآيات معلقات بالعرش ، ليس بينهن وبين الله حجاب » أسنده أبو عمرو الدانى فى كتاب « البيان » له ، ونقله القرطبى عنه .

أين ومتى نزلت :

الجمهور على أنها نزلت بمكة لقوله تعالى : « ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم ، والحجر مكية بإجماع ، ولأن الصلاة فرضت بمكة ، ولم تحفظ فى الإسلام صلاة بغير الفاتحة ، وقال أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهرى ونفر : هى مدنية ، وجمع بعض العلماء بين القولين بأنها تكرر نزولها فنزلت بمكة ونزلت بالمدينة حين حولت القبلة .

وذهب بعض المفسرين إلى أنها أول آيات القرآن وسوره نزولا ، والجمهور على أن أول مانزل من القرآن (إقرأ باسم ربك الذى خلق) الآيات وقيل ، المدثر ، وقد ذكر البيهقى فى « دلائل النبوة » عن أبى ميسرة عمر ابن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة « إنى إذا خلوت وحدى سمعت نداء . وقد والله خشيت أن يكون هذا أمراً . فقالت « معاذ الله ، ما كان الله ليفعل بك فوالله أنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث » . فلما دخل أبو بكر وليس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكرت خديجة حديثه له ، قالت ياعتيق اذهب مع محمد إلى ورقة بن نوفل فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ أبو بكر بيده فقال : انطلق بنا إلى ورقة فقال ، ومن أخبرك ؟ قال خديجة ، فانطلقا إليه فقصا عليه

فقال : « إذا خلوت وحدى سمعت نداء خلفى : يا محمد يا محمد ، فأنطلق هارباً فى الأرض » فقال : لاتفعل إذا أتاك فاثبت حتى تسمع مايقول ، ثم ائتنى فاخبرنى ، فلما خلا ناداه يا محمد قل بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين — حتى بلغ ولا الضالين — قل لاإله إلا الله ، فأتى ورقة فذكر ذلك له فقال ورقة : أبشر ثم أبشر ، فأنا أشهد أنك الذى بشر به عيسى بن مريم ، وأنك على مثل ناموس موسى ، وأنك نبى مرسل ، وأنك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا وإن يدركنى ذلك لأجاهدن معك ، فلما توفى ورقة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد رأيت القس فى الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بى وصدقنى « يعنى ورقة » قال البيهقى : هذا منقطع ، وهو ليس نصاً فى أن الفاتحة أول مانزل على كل حال — وذهب الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى تفسيره إلى أنها أول سورة نزلت من القرآن محتجاً لذلك بأن سنة الله تبارك وتعالى قد جرت بأن يسبق الإجمال التفصيل ، وسورة الفاتحة قد تضمنت مقاصد القرآن الكريم إجمالا ، وذلك يقتضى أن تسبق فى النزول ، وأفاض فى تفصيل ذلك ، وقد يقال إن هذا يصح علة للترتيب لا للنزول الذى كان يتبع غالباً الحوادث والوقائع .

أسم القرآن :

وللفاتحة أسماء كثيرة فهى : الصلاة ، للحديث القدسى : « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى » وسيأتى ، وهى الحمد ، وهى فاتحة الكتاب بلا خلاف بين العلماء فى ذلك ، وهى أم الكتاب وأم القرآن ، وكره إطلاق هذين الإسمين عليها أنس وابن سيرين ، والحديث الثابت ينفى هذه الكراهة .

روى الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله أم القرآن ، وأم الكتاب ، والسبع المثانى ، وهى المثانى ، وهى

الشفاء ، وهى الأساس ، وهى الواقية ، وهى الكافية ، وهى الرقية ، وهى القرآن العظيم » .

قال القرطبى : سميت القرآن العظيم لتضمنها جميع علومه ، وذلك أنها تشتمل على الثناء لله عز وجل بأوصاف كماله وجلاله ، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها ، والاعتراف بالعجز عن القيام بشىء منها إلا بإعانته تعالى ، وعلى الابتهال إليه فى الهداية إلى الصراط المستقيم ، وكفاية أحوال الناكثين ، وعلى بيانه عاقبة الجاحدين . كذا قال رحمه الله . ويمكن أن يقال إنها تضمنت مقاصد القرآن الكريم إجمالا بمعنى آخر . هو أن القرآن الكريم إنما جاء لبيان حقوق الخالق على خلقه ، وحاجة الخلق إلى خالقهم ، وتنظيم الصلة بين الخالق والمخلوق . وهذه هى جملة المقاصد التى جاء بها القرآن ، بل جاءت بها الكتب السماوية والأديان كلها ، وقد أشارت إليها الفاتحة ، فآياتها الأولى بيان لحقوق الله على خلقه . و « إياك نعبد وإياك نستعين » مع طلب الهداية منه تعالى إلى الصراط المستقيم بيان لحاجة الخلق إلى خالقهم ، والصراط المستقيم هو نظام هذه الصلة بين المخلوقين والخالق ، كما تضمنت الفاتحة كذلك الإشارة إلى الرد على كل طوائف المبطلين الخارجين عن المستقيم وبيان أسباب هذا الخروج وهى لا تتعدى الغضب عليهم أو الضلال منهم . وبهذا استحقت الفاتحة أن يطلق عليها أم القرآن ، بل القرآن العظيم .

البسملة فى الفاتحة :

قال الشوكانى فى باب ما جاء فى بسم الله الرحمن الرحيم : وقد اختلفوا هل هى آية من الفاتحة فقط ، أو من كل سورة ، أو ليست بآية . فذهب ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وطاوس وعطاء ومكحول وابن المبارك

وطائفة إلى أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة غير براءة . وحكى عن أحمد وإسحاق وأبي عبيد وجماعة أهل الكوفة ومكة وأكثر العراقيين وحكاه الخطابى عن أبى هريرة وسعيد بن جبير ورواه البيهقى فى « السنن الكبرى » عن ابن عباس ومحمد بن كعب أنها آية من الفاتحة فقط . وحكى عن الأوزاعى ومالك وأبى حنيفة وداود ، وهو رواية عن أحمد ، أنها ليست آية فى الفاتحة ولا فى أوائل السور . وقال أبو بكر الرازى وغيره من الحنفية هى آية بين كل سورتين غير الأنفال وبراءة ، وليست من السور بل هى قرآن مستقل كسورة قصيرة . وحكى ذلك عن داود وأصحابه ، وهو رواية عن أحمد .

ولا خلاف أنها آية فى أثناء سورة النمل ، ولا خلاف فى إثباتها خطا فى أوائل السور فى الصحف إلا فى أول سورة التوبة . وأما التلاوة فلا خلاف بين القراء السبعة فى أول فاتحة الكتاب . وفى أول كل سورة إذا ابتدأ بها القارىء ما خلا سورة التوبة . وأما فى أوائل السور مع الوصل بسورة قبلها فأثبتها ابن كثير وقالون وعاصم والكسائى من القراء فى أول كل سورة إلا التوبة ، وحذفها منهم أبو عمرو وحمزة وورش وابن عامر .

احتج القائلون بأنها آية فى الفاتحة بكتابتها فى المصحف الإمام الذى بعث به الخليفة الثالث رضى الله عنه إلى الأنصار بعد مشاورة الصحابة ، وأجمعت عليه الأمة والكتابة أقوى الأدلة ، وبما ورد من الأحاديث الصحاح التى تثبت ذلك .

ومنها ما رواه البخارى عن قتادة قال : سئل أنس كيف كانت قراءة النبى صلى الله عليه وسلم فقال : كانت مداً . ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم ويمد بالرحمن ويمد بالرحيم . وروى عنه الدارقطنى من طريقين أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يجهر بالبسملة .

وما روى عن أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها سئلت عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : كان يقطع قراءته آية آية بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . رواه أحمد وأبو داود بهذا اللفظ وغيرهما .

وما رواه النسائى وغيره عن نعيم المجمر قال : صليت وراء أبى هريرة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ثم قرأ بأم القرآن — وفيه يقول إذا سلم والذى نفسى بيده إنى لأشبهكم صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وقال على شرط البخارى ومسلم وأقره الذهبى وقال البيهقى صحيح الإسناد وله شواهد وحديث على كرم الله وجهه : سئل عن السبع المثانى فقال : الحمد لله رب العالمين قيل إنما هى ست فقال : بسم الله الرحمن الرحيم . رواه الدارقطنى . وله حديثان آخران عنه وعن عمار بن ياسر فى إثبات جهر النبى صلى الله عليه بالبسملة وإن تكلم فى سندهما .

وحديث أنس رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى عليه وسلم يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم . رواه الحاكم وقال : ورواته عن آخرهم ثقات وأقره الحافظ الذهبى .

واحتج القائلون بأنها ليست آية من الفاتحة بما رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذى والنسائى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهى خداج » يقولها ثلاثاً فقيل لأبى هريرة : إنا نكون وراء الإمام فقال اقرأ بها فى نفسك فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله عز وجل : قسمت الصلاة

بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل . فإذا قال العبد (الحمد لله رب العالمين) قال الله حمدنى عبدى . فإذا قال (الرحمن الرحيم) قال الله أثنى علىّ عبدى فإذا قال (مالك يوم الدين) قال مجدنى عبدى . وقال مرة فوض إلى عبدى . وإذا قال (إياك نعبد وإياك نستعين) قال هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل . فإذا قال (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قال هذا لعبدى ولعبدى ما سأل . فهو لم يذكر فيه بسم الله الرحمن الرحيم ولو كانت من الفاتحة لذكرت . وقد يرد على هذا بأن البسملة فيها الثناء على الله بما تكرر فى الفاتحة فلم يكن هناك ما يدعو إلى ذكرها وبخاصة وهى مشتركة فى كل السور .

وبما روى عن أنس قال : صليت مع النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان فلم أسمع أحداً منهم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم . رواه أحمد ومسلم . وفى لفظ . صليت خلف النبى صلى الله عليه وسلم وخلف أبي بكر وعمر وعثمان فكانوا لا يجهرون ببسم الله الرحمن الرحيم . رواه أحمد والنسائى بإسناد على شرط الصحيح . ولأحمد ومسلم : صليت خلف النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان وكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم فى أول قراءة ولا آخرها . وهناك روايات أخرى تدور حول ذلك .

وذكر بعض العلماء أن ما جاء فى روايات النفى سببه الإسرار بالبسملة وجمع بين الأقوال بناء على ذلك .

وروى الطبرانى فى الكبير والأوسط فى سبب ترك النبى صلى الله عليه وسلم للجهر بالبسملة فى الصلاة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه صلى الله عليه

وسلم كان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم وكان المشركون يهزءون بمكاء وتصدية ويقولون محمد يذكر إله اليمامة — يشيرون إلى قول مسيلمة الكذاب وتسميته حائطه بحديقة الرحمن فأنزل الله « ولا تجهر بصلاتك » فتسمع المشركين فيهزءوا بك « ولا تخافت بها » عن أصحابك فلا تسمعهم وقال فى « مجمع الزوائد » إن رجاله موثقون فلما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة كان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم تارة ويسر بها أخرى واختلفت الروايات بناء على ذلك .

وقد أفرد هذه المسألة بالتأليف جماعة من أكابر العلماء . وجمع فيها الشوكانى رسالة تشتمل على نظم ونثر أجاب بها على سؤال ورد . وبالغ بعضهم حتى عدها من مسائل الاعتقاد والأمر أيسر من هذا كله . وحسبنا أن نراها مثبتة فى المصحف وقد أجمع الصحابة رضوان الله عليهم على كتابتها فى صدر الفاتحة وتلاوتها حين القراءة وأن ما بين دفتى المصحف قرآن نزل من عند الله لنقول إنها آية منها وكفى .

الفاتحة فى الصلاة :

اختلف العلماء فى وجوب قراءة الفاتحة فى الصلاة فذهب الجمهور إلى وجوبها فى كل ركعة للامام والمنفرد والمأموم . وحجتهم فى ذلك ما روى من حديث عبادة ابن الصامت رضى الله عنه فيما رواه الجماعة كلهم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » . وفى لفظ رواه الدارقطنى بإسناد صحيح « لا تجزىء صلاة من لم يقرأ بفاتحة الكتاب » .

وذهب أبو حنيفة والكوفيون إلى أن الفاتحة غير واجبة بل تجب آية من القرآن لما جاء من قول النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث المسىء صلاته :

« ثم اقرأ ماتيسر معك من القرآن » وأجيب عنه بأنه لاأيسر من الفاتحة ولأنه ثبت فى رواية أخرى أنه قال له « ثم اقرأ بأم القرآن » فهذا مفسر لما تيسر ، وأما إذا كان مأموماً فلا قراءة عليه مطلقاً عند أبى حنيفة محتجاً بما ورد من أن قراءة الإمام قراءة له فإن قرأ كره تحريماً .

وذهب مالك وأصحابه إلى أنها متعينة للامام والمنفرد فى كل ركعة ، مطلوبة من المأموم خلف أمامه فى صلاة السر فإن تركها فقد أساء ولا شىء عليه ، وأما فى صلاة الجهر فلا يقرأ بفاتحة القرآن ولا بغيرها لقوله تعالى « وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا » ولقول النبى صلى الله عليه وسلم فى الإمام « وإذا قرأ فأنصتوا » أخرجه الدارقطنى وقال رواه سفيان الثورى وشعبه وإسرائيل بن يونس وشريك وأبو خالد الدالانى الخ . عن عبد الله ابن شداد مرسلا عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وذهب الحسن البصرى ، وأكثر أهل البصرة والمغيرة بن عبد الرحمن المدنى إلى أن قراءتها واجبة مرة واحدة فى كل صلاة اعتماداً على أن من فعل ذلك فقد قرأ بأم القرآن فى صلاته وذلك يجزئه .

والذى تطمئن إليه النفس أن الفاتحة واجبة فى الصلاة على كل مصل قادر على تلاوتها ولم يثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم ولا أحد من خلفائه أو أصحابه أو التابعين لهم بإحسان صلى صلاة بغير قراءة الفاتحة فيها « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » .

بسم الله الرحمن الرحيم

فى افتتاح القرآن الكريم عامة وسوره بعد ذلك بهذه الآية الكريمة إرشاد لنا إلى أن نستفتح بها كل أقوالنا الطيبة وأعمالنا . وقد جاء فى الحديث : « كل أمر ذى بال لايبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع »

وفى رواية « أجذم » وفى رواية « أبتر » وكلها بمعنى واحد رواه أبو داود وحسنه ابن الصلاح ، وكأن المقصود بهذا الافتتاح أقرأ مفتتحاً باسم الله الرحمن الرحيم أو أعمل أو أقول مفتتحاً باسم الله الرحمن الرحيم .

والإسم مادل على ذات من الذوات أو معنى من المعانى ولفظ الجلالة « الله » علم على ذات واجب الوجود وهو آكد أسمائه سبحانه وأجمعها وما عداه صفات له سبحانه وتسند إليه تعالى أفعال هذه الصفات وتضاف إليه مصادرها ويطلق عليها الأسماء الحسنى وكل اسم منها صفة فى المعنى وهو يدل على ذات الله وعلى الصفة التى اشتق منها وإسم الجلالة الأعظم يدل عليها وكلها وعلى لوازمها الكمالية وعلى تنزهه سبحانه عن أضدادها . فهو دال على اتصاف مسماه بجميع صفات الكمال وتنزهه عن جميع النقائص .

(الرحمن الرحيم) صفتان لله تعالى مشتقان من الرحمة بالمعنى الذى يليق بجلاله سبحانه — قال ابن القيم : وأما الجمع بين الرحمن والرحيم ففيه معنى بديع وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم ، وكأن الأول الوصف والثاني الفعل . فالأول دال على أن الرحمة صفة ذات له سبحانه ، والثانى دال على أنه يرحم خلقه برحمته أى صفة فعل له سبحانه ، فإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى : « وكان بالمؤمنين رحيما » — « إنه بهم رؤوف رحيم » ولم يجىء قط رحمن بهم ، فعلمت أن رحمن هو الموصوف بالرحمة ورحيم هو الراحم برحمته — وقال رحمه الله تعالى : هذه النكتة لاتكاد تجدها فى كتاب .

ولكن الشيخ محمد عبده رحمه الله ذهب إلى عكس ذلك فقال : والذى أقول إن صيغة فعلان تدل على وصف فعلى فيه معنى المبالغة كفعال وهو فى استعمال اللغة للصفات العارضة كعطشان وغرثان وغضبان ، وأما صيغة

فعيل فإنها تدل فى الاستعمال على المعانى الثابتة كالأخلاق والسجايا فى الناس كعليم وحكيم وحليم وجميل والقرآن لا يخرج عن الأسلوب العربى البليغ فى الحكاية عن صفات الله عز وجل ، التى تعلو عن مماثلة صفات المخلوقين . فلفظ الرحمن يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل وهى إفاضة النعم والإحسان ، ولفظ الرحيم يدل على منشأ هذه الرحمة والإحسان وعلى أنها من الصفات الثابتة الواجبة . وبهذا المعنى لا يستغنى بأحد الوصفين عن الآخر . ولا يكون الثانى مؤكداً للأول فإذا سمع العربى وصف الله جل ثناؤه بالرحمن وفهم منه أنه المفيض للنعم فعلا لا يعتقد منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائماً لأن الفعل قد ينقطع إذا لم يكن عن صفة لازمة ثابتة وإن كان كثيراً . فعندما يسمع لفظ الرحيم يكمل اعتقاده على الوجه الذى يليق بالله تعالى ويرضيه سبحانه ويعلم أن لله صفة هى الرحمة التى عنها يكون أثرها وإن كانت تلك الصفة على غير مثال صفات المخلوقين ويكون ذكرها بعد الرحمن كذكر الدليل بعد المدلول ليقدم برهاناً عليه . ملخصاً من تفسير المنار . ولعل هذا الرأى الأخير هو الأقرب إلى قواعد اللغة وأساليبها .

وقد ذهب الشيخ محمد عبده فى رده على بعض المعترضين عليه وتوجيه كلامه هذا مذهباً لطيفاً نورده هنا ملخصاً لجمال إشارته قال :

« إن احتمال التوكيد بذكر الصفتين معاً لنفى التعدد بعيد لأنه لا علاقة بين التوحيد ومعنى الرحمة ولم يسبق فى التاريخ أن أحد ذهب إلى أن الرحمن معبود والرحيم معبود آخر حتى يرد عليه بأنها شىء واحد ولكن الذى عرف هو قول النصارى فى ابتداء شئونهم باسم الأب والابن والروح القدس وهو فى زعمهم ثلاثة مختلفة الأحاد مع أنها واحد . فأراد الله أن يجعل للمسلمين فاتحة أعمال تحتوى على ثلاثة معان : الأول ذات ، والآخران صفتان — فلفظ

الجلالة هو الذات وهو يقابل الأب عندهم والرحمن وصف الفعل المتجدد الصادر من فيض الكرم وهذا يقابل الابن لزعمهم أنه منبثق من الذات والرحيم يدل على الصفة الثابتة للذات الأقدس وهى التى يرجع إليها الفعل المتجدد — وباعتبارها يصدر ويتجدد وهو يقابل روح القدس فإنه عندهم الصلة بين الأب والابن وإن حاولوا ستر ذلك بضروب من العبارات ، فأراد الكتاب أن يعلمنا كيف نضع التوحيد مكان التثليث ونستبدل بألفاظ التشبيه خبيراً منها من ألفاظ التنزيه . ولا يفوتنا المعنى الذى يحتج بقصده من الأب والابن والروح القدس وهو معنى الرحمة وإفاضة النعمة . وهذا هو وجه تكرير هذه الفاتحة الكريمة فى كل سورة والندب إلى الافتتاح بها فى كل عمل ذى بال » .

أقول لو قبل أهل الدين من النصارى هذا التفسير لانحلت أعظم عقدة تباعد بين عقيدتى المسيحية والإسلام .

ومجمل القول أن جمهور المفسرين على أن معنى الرحمن المنعم بجلائل النعم ومعنى الرحيم المنعم بدقائقها وهو توجيه لا دليل عليه ، أو أنهما بمعنى واحد والثانى تأكيد للأول وهو رأى الجلال والصبان وبعض المفسرين وهو ضعيف ، إذ أن الحق أنه لا توجد فى القرآن كلمة زائدة لغير معنى مقصود كما قال ابن جرير الطبرى . أو أن أحد الوصفين يدل على صفة الرحمة الثابتة له سبحانه ، والثانى يدل على تجدد الأفعال المتعلقة بهذه الصفة وهو ما ذهب إليه ابن القيم والشيخ محمد عبده رحمهما الله . وهو الذى تستريح إليه النفس .

الحمد لله رب العالمين

(الحمد) الثناء الحسن الجميل ، وهو يكون على مقدار علم الحامد بصفات المحمود وكلما كان هذا العلم واسعاً شاملاً كان الحامد أصدق حمداً ،

ومن هنا وجب على المسلمين أن يجتهدوا فى استطلاع أسرار الكون وتعرف ما فيه من قوى وعجائب ليستطيعوا بذلك أن يدركوا عظمة الكون إدراكا صحيحاً . فيكون حمدهم إياه وثناؤهم عليه حمداً صادقاً منشؤه الإدراك الحقيق والشعور القلبي والتقدير العقلى لا مجرد التقليد اللفظى أو التعبد الوراثى — ومن هنا كان أعظم الحمد وأجل الثناء حمده سبحانه لنفسه « سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

وحمده سبحانه واجب لذاته لأنه الموصوف بالكمالات كلها المستحق المحامد كلها وإن أثارت الأسباب معانى هذا الحمد فى نفوس عباده فالجائع يحمد عند الشبع . والظمآن يحمد عند الرى . والفقير يحمد مع الغنى . والجاهل يحمد عند العلم . والمحروم يحمد إذا أعطى « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربى لسميع الدعاء » وهذا هو سر الجمع بين استحقاق الحمد وربوبيته سبحانه للعالمين .

(رب العالمين) قال البيضاوى : الرب فى الأصل مصدر بمعنى التربية وهى تبليغ الشىء إلى كماله شيئاً فشيئاً ثم وصف به للمبالغة ثم سمى به المالك لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه ولا يطلق على غيره تعالى إلا مقيداً أو مضافاً ، وقال الراغب : الرب فى الأصل التربية وهو إنشاء الشىء حالا فحالا إلى حد التمام . ولا يقال الرب مطلقاً إلا الله تعالى .

(والعالمين) جمع عالم قيل المراد به الناس خاصة على حد قوله تعالى : « ليكون للعالمين نذيراً » وقيل بل أهل العلم والإدراك من الخلق من الملائكة والإنس والجن . وقيل كل جملة متميزة لأفرادها صفات تقربها من العاقل فهى عالم ، ولهذا جمعت على هذا النحو . ومنه عالم الإنسان ، وعالم النبات ،

وعالم الحيوان . ولا يقال عالم الحجر أو الجبال أو نحوها من الجمادات . وقيل بل المراد بالعالمين جميع أجناس المخلوقات على حد قوله تعالى : « قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين » ولعل أولى الأقوال بالصواب أن يقال إن هذه المعانى جميعاً تراد بهذا اللفظ بحسب القرينة . والمراد هنا المعنى الأخير فإنه سبحانه مربى الخلائق جميعاً .

* * *

والتربية الإلهية للخلق جميعاً واضحة فى كل مظاهر هذه العوالم ، دقيقها وجليلها ، فالجمادات يربيها الخالق سبحانه بهذه النواميس الكونية التى لا تتخلف من التفاعل والتحليل والتركيب والامتزاج والاتحاد والتحول . وصنوف النبات يتضح فيها معنى التربية الإلهية بشكل أوضح مما فى الجماد لما فيها من معانى الحياة ومبادئها ، فالجنين النباتى يظل مستجناً فى البذرة حتى يجد التربة الصالحة فينمو ويتحرك ويتغذى بما حوله من المواد الغذائية التى جهزت لهذا الغرض ، فتكون له بمثابة الثدى فى الحيوان حتى إذا نما وكبر تشبث بالأرض وامتص منها غذاءه ونما وازداد فى تركيب غريب ووضع دقيق عجيب ويظهر على وجه الأرض نبتة تتحول إلى شجيرة فشجرة ذات أغصان وأوراق وثمار تتأثر وتتنفس وتتغذى وتحمل وتنتج الثمرات . والحيوان على اختلاف فصائله والإنسان يربيهما الخالق جل وعلا فى كل أطوار الحياة من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى الهيكل العظمى فالتكوين التام الكامل ، فالوضع والرضاع والنمو والكبر مع تيسير أسباب البقاء والمحافظة التامة على صيانة الأجهزة والأعضاء والإمداد بعد ذلك بأسباب المعارف والمدركات المتنوعة والعواطف والمشاعر والوجدانات المختلفة حتى يستطيع أن يميز بين الحسن وغيره ،

ويتذوق معانى الخير والحق والجمال . وما من شىء يظن القاصرون أنه ليس بذى بال إلا وله من الحكم الجليلة والفوائد العظيمة ماتتحير معه الألباب ، وهذا الباب من تربية الله تبارك وتعالى للعالمين ، لاينتهى مداه ولو كتبت فيه المجلدات . ففيه أسرار الكون ، ودقائق الصنع المتصلة بجميع الخلق وغرائب الإبداع فى نواميس هـذا العالم الذى لم يصل العقل الإنسانى فى الإحاطة بها إلا إلى النذر اليسير ولا زال أمامه الجم الكثير . وهذه الآية الكريمة من جوامع الكلم ولا شك ، فقد أشارت واحتملت هذه المعانى كلها فى هذه الألفاظ الأربعة اليسيرة .

الرحمن الرحيم

قال فى تفسير المنار ملخصه : النكتة فى إعادة ذكرها ظاهرة وهى أن تربية الله للعالمين ليست لحاجة به إليهم كجلب منفعة أو دفع مضرة ، وإنما هى لعموم رحمته وشمول إحسانه . وثم نكتة أخرى وهى أن البعض يفهم من معنى الرب الجبروت والقهر فأراد الله أن يذكرهم برحمته وإحسانه ليجمعوا بين اعتقاد الجلال والجمال ، فذكر الرحمن وهو المفيض للنعم بسعة وتجدد لا منتهى لهما والرحيم الثابت له وصف الرحمة لا يزايله أبداً ، فكأن الله تعالى أراد أن يتحبب إلى عباده فعرفهم أن ربوبيته ربوبية رحمة وإحسان ليعلموا أن هذه الصفة هى التى ربما يرجع إليها معنى الصفات فيقبلوا على اكتساب مرضاته منشرحة صدورهم مطمئنة قلوبهم . ولا ينافى عموم الرحمة وسبقها ما شرعه الله من العقوبات فى الدنيا وما أعده من العذاب فى الآخرة للذين يتعدون الحدود وينتهكون الحرمات فإنه وإن سمى قهراً بالنسبة لصورته ومظهره فهو فى حقيقته وغايته من الرحمة . لأن فيه تربية للناس وزجراً لهم عن الوقوع فيما يخرج عن حدود الشريعة الإلهية وفى الانحراف عنها شقاؤهم وبلاؤهم .

وفى الوقوف عندها سعادتهم ونعيمهم والوالد الرءوف يربى ولده بالترغيب فيما ينفعه والإحسان إليه إذا قام به وربما لجأ إلى الترهيب والعقوبة إذا اقتضت ذلك الحال ولله المثل الأعلى لا إله إلا هو وإليه يرجعون .

مالك يوم الدين

قرىء مالك وملك . ولكل من القراءتين شواهد فى كتاب الله ، يشهد للأولى قوله تعالى : « يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله » سورة الانفطار الآية ١٩ ، ويشهد للثانية قوله تعالى : « لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار » سورة غافر الآية ١٦ .

والدين : الحساب ، والمكافأة ، والجزاء . وهو أنسب المعانى فى الآية الكريمة . ويوم الدين هو يوم البعث الأكبر للحساب والجزاء « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً » ، سورة آل عمران الآية ٣٠ ، ولما كانت الرحمة ليست السبيل الوحيد إلى التربية بل لابد معها من الجزاء حتى يجتمع الترهيب إلى الترغيب ناسب أن يذكر الله خلقه بدقيق محاسبته بعد أن ذكرهم بمظاهر رحمته حتى يتمثلوا دائماً أن رب العالمين الرحمن الرحيم هو مالك يوم الدين كذلك الذى سيحاسبهم ويدينهم بما يفعلون . والبر لا يبلى ، والذنب لا ينسى ، والديان لا يموت . اعمل ما شئت فكما تدين تدان . وهو أسلوب القرآن الكريم دائماً كما قال تبارك وتعالى : « نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم » سورة الحجر ٤٩ — ٥٠ .

إياك نعبد وإياك نستعين

تفسر العبادة لغة بأنها الطاعة مع غاية الخضوع . ولكن هذا التفسير

اللغوى لا يؤدى المعنى المقصود بالعبادة بالضبط . ولا يزال المرء يشعر بأنه فى حاجة إلى تعريف أوفى وأدق وأشفى للنفس . فقد يطيع الناس الرؤساء والكبراء طاعة تامة مع غاية الخضوع ولا يقال إنهم عبدوهم بذلك والعبادة غير العبودية ولا بد من تفريق بينهما ، يشعر بذلك الذوق السليم والطبع المستقيم . وقد ألم الأستاذ الشيخ محمد عبده فى تفسيره بهذا المعنى إلماماً جمع وصور معنى العبادة تصويراً بديعاً يطمئن به القلب فقال : « يغلو العاشق فى تعظيم معشوقه والخضوع له غلواً كبيراً حتى يفنى فى هواه ، وتذوب إرادته فى إرادته ، ومع ذلك لا يسمى خضوعه هذا عبادة بالحقيقة ، ويبالغ كثير من الناس فى تعظيم الرؤساء والملوك والأمراء . فترى من خضوعهم لهم وتحريهم مرضاتهم ما لا تراه من المتحنثين القانتين دع سائر العابدين . ولم يكن العرب يسمون شيئاً من هذا الخضوع عبادة . فما هى العبادة إذن ؟ تدل الأساليب الصحيحة والاستعمال العربي الصراح على أن العبادة ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية . ناشىء عن استشعار القلب عظمة للمعبود لا يعرف منشأها ، واعتقاده بسلطة له لا يدرك كنهها وماهيتها وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ولكنها فوق إدراكه . . . للعبادة صور كثيرة فى كل دين من الأديان شرعت لتذكير الإنسان بذلك الشعور بالسلطان الإلهى الأعلى الذى هو روح العبادة وسرها . ولكل عبادة من العبادات الصحيحة أثر فى تقويم أخلاق القائم بها وتهذيب نفسه والأثر إنما يكون عن ذلك الروح والشعور الذى قلنا إنه منشأ التعظيم والخضوع فإذا وجدت صورة العبادة خالية من هذا المعنى لم تكن عبادة . كما أن صورة الإنسان وتمثاله ليس إنساناً » . هذا أقوله ملخصاً وهو كلام بديع كما ترى يجعل حقيقة العبادة مبعث التعظيم فى القلب لا صورتها التى تمثلها الجوارح . والاستعانة طلب المعونة لإزالة العجز والمساعدة على إتمام

ما يعجز المستعين عن أدائه أو إتمامه بنفسه . وهى فى الأمور العادية التى تدخل فى حيز قدرة الإنسان وتصرفه جائزة بين الناس ، بل هى من القربات التى يتقرب بها المرء إلى الله تبارك وتعالى . والله فى عون ما كان العبد فى عون أخيه ، لأنها من الأسباب المشروعة المسنونة لإتمام الأعمال وأدائها . ولكن الاستعانة فى الأمور الخاصة بالله تبارك وتعالى والتى لا يصح أن تطلب من أحد سواه وهى ما يجاوز حد القدرة البشرية كطلب الشفاء بعد استخدام الدواء . وكطلب النصر على الأعداء بعد إعداد العدة وبذل المستطاع . وكالاستعاذة بالله من الجوائح والآفات وصنوف البلاء إلى غير ذلك مما هو فى يد الله وحده ولا يقدر عليه إلا مدبر الأمر فى الأرض وفى السماء .

العبادة والاستعانة بهذا المعنى لا تكونان إلا لله وبالله وحده تبارك وتعالى ولهذا قدم الضمير (إياك) ليدل على الاختصاص كما يقول أهل اللغة . وكل المظاهر التى تدل على العبادة شرعاً حسية أو معنوية لا يجوز أن تكون إلا لله كالصلاة والركوع والسجود والنذر والقربان والحلف والخوف والرجاء والتوكل والإنابة والمحبة والرغبة والرهبة والتأله والتذلل الخ — كما أن مظاهر الاستعانة التى اختصها الشرع بالله تبارك وتعالى لا يصح أن تصرف لغيره كالدعاء والاستغاثة واستمداد الحول والقوة وطلب قضاء الحاجات الخ . . وبذلك يسلم للمؤمن دينه . ويكمل إيمانه ويقينه . ويسلم من لوثات الشرك الأكبر والأصغر ويجتمع له توحيد الألوهية والربوبية معاً . والتوفيق بيد الله .

والآية من جوامع الكلم ، لأنها أشارت إلى خلاصة ما جاءت له الرسالات كلها وبعث به الرسل جميعاً من حقوق الله وجميع فضله على خلقه . وليس الدين أكثر من « إياك نعبد وإياك نستعين » الأولى بداية المعرفة والثانية

ثمرتها وبينهما منازل ودرجات لا يقطعها إلا المقربون . ولقد ألف الشيخ إسماعيل الهروى رسالة لطيفة أسماها « منازل السائرين بين إياك نعبد وإياك نستعين » ألم فيها ببعض ذلك وأشار إليه وشرحها ابن القيم فى سفر كبير أسماه « مدارج السالكين إلى منازل السائرين » هو من خير ما كتب فى علوم الأخلاق وأدب النفوس وتربيتها بأسلوب الصوفية من السلف الصالح رضوان الله عليهم .

ومن اللطائف اللفظية فى الآية الكريمة أن كلمة الإستعانة تشعر بوجوب العمل والأخذ فى الأسباب لأن الاستعانة هى طلب العون من الله على أداء عمل أو إتمامه . فلا بد للانسان إذن من أن يأخذ بالأسباب ويجد فى الأعمال ثم يطلب المساعدة والمعونة من الله تبارك وتعالى . ومن كلام عمر رضى الله عنه « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول اللهم ارزقنى وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » وفى هذا تكريم للانسان بجعل العمل المتصل به أساساً فى كل ما يحتاج إليه .

وقد ذهب بعض المفسرين إلى قصر طلب الاستعانة على التوفيق فى العبادة استئناساً بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أخذ بيد معاذ رضى الله عنه وقال له « والله إنى لأحبك أوصيك يا معاذ لا تدعن دبر كل صلاة أن تقول اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » ولكن هذا التخصص لا معنى له وإن كان أفضل الإستعانة ولا شك ما كان على الطاعة والخير وحسن عبادة الله .

إهدنا الصراط المستقيم

الصراط : الطريق ، والمستقيم : المعتدل . والآية من جوامع الكلم

كذلك فإن الإنسان فى حاجة إلى الهداية إلى الصراط المستقيم فى كل قول وعمل وفكرة وخاطرة ، لأنه فى كل ذلك بين إفراط وتفريط وكلاهما ضار والنافع المفيد دائماً هو الحد الوسط وهو الصراط المستقيم الذى نطلب الهداية إليه من الله تبارك وتعالى بهذه الآية وهو من الدين ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه بغير زيادة عليه ولا انتقاص منه ولا انحراف عنه . « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » سورة يوسف الآية ١٠٨ « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » سورة الأنعام الآية ١٥٣ « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور » سورة شورى الآية ٥٢ — ٥٣ وعن النواس ابن سمعان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تبارك وتعالى ضرب مثلا صراطاً مستقيما على كتفى الصراط داران « وفى رواية » سوران لهما أبواب مفتحة على الأبواب ستور وداع يدعو على رأس الصراط وداع يدعو فوقه والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . فالأبواب التى على كتفى الصراط حدود الله تعالى فلا يقع أحد فى حدود الله تعالى حتى يكشف الستر والذى يدعو من فوقه واعظ ربه ، أخرجه الترمذى — وفسره رزين فى حديث رواه عن ابن مسعود رضى الله عنه : أن الصراط هو الإسلام . وأن الأبواب محارم الله والداعى على رأس الصراط هو القرآن والداعى فوقه واعظ الله تعالى فى قلب كل مؤمن .

ولقد منح الله الإنسان أربع وسائل للهداية تتدرج مع أفراده ونوعه بتدرج نموهم واستعدادهم فالوسيلة الأولى الوجدان الطبيعى والإلهام الفطرى . وهذا يكون مع الطفل منذ ولادته . ألا تراه يشعر بالحاجة إلى الغذاء فيلتقم

الثدى ويمتصه بحركة آلية فطرية لا تفكير معها ولا تدبير . والثانية الحواس والمشاعر التى تنمو بنمو الإنسان من السمع والبصر والذوق والشم والحس . وهى عرضة للخطأ فى كثير من الأحيان . والثالثة العقل بقواه المختلفة من الإدراك والفكر والخيال والحفظ والذكر الخ وهو مصدر الحكم ومناط التكليف فى الإنسان . وبه تصحح أخطاء الحواس وتدرك حقائق الأشياء فى الحسيات والمعنويات على السواء . والرابعة الدين والإرشاد الإلهى والرسالات السماوية مع الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

هذه الوسائل جميعاً قد يضل الإنسان فى استخدامها ولا يستطيع الاستفادة منها والانتفاع بها . فقد تقصر حواسه فى الإلمام بالمحسات . وقد يضعف عقله بالعلل والآفات أو الأغراض والشهوات عن الوصول إلى الحقيقة ، وقد ينحرف عن الدين لجهالة به أو إعراض عنه أو غير ذلك من الأسباب ، ولهذا شرع لنا الله تبارك وتعالى أن نسأله الهداية إلى الصراط المستقيم فى هذه الوسائل كلها . فلا تقصر حواسنا ولا تضعف عقولنا ولا نحيد فى فهم الدين والفقه فيه عن الحق وجادة الصواب . واستقصاء مدلول الصراط المستقيم فى جميع الأقوال والأفعال غير ممكن لأنه الحد الوسط فى كل قول وفعل كما تقدم وفى هذا الإيجاز منتهى الإعجاز . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين

فى هذه الآية الكريمة ثلاث أصناف من الناس هم . الذين أنعم الله عليهم والمغضوب عليهم والضالون .

قال بعض المفسرين الذين أنعم الله عليهم هم المؤمنون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أو غيرها من الأمم السابقة ، والمغضوب عليهم هم اليهود الذين

انحرفوا عن هدى التوراة ، والضالون هم النصارى الذين لم يستمسكوا بتعاليم الإنجيل الصحيح ، وقد وردت بذلك بعض الآثار . كما قال بعض المفسرين . المغضوب عليهم بالبدعة ، والضالون عن السنة . ولا مبرر لهذا التخصيص إلا أن يكون ذلك على سبيل التمثيل فقط . ولعل أجمع مايقال فى ذلك وأوفاه أن الذين أنعم الله عليهم هم الذين عرفوا الحق ، ووفقهم الله إلى اتباعه فاهتدوا بذلك إلى الصراط المستقيم ، وأن المغضوب عليهم هم الذين عرفوا الحق ثم أعرضوا عنه من أى دين كانوا وفى أى زمن وجدوا ، ولا شك أن هذا الإعراض دليل غضب الله تبارك وتعالى عليهم ، وأن الضالين هم الذين غفلوا عن الحق وتاهوا فى أودية الضلال ، أو الذين يتلمسون الحق فلا يهتدون إليه من أى دين كانوا وفى أى زمان وجدوا كذلك . وأن الله تبارك وتعالى أرشدنا إلى أن نسأله الهداية إلى سنن الصنف الأول من الذين أنعم الله عليهم . وأن نبرأ إليه من الصنفين الآخرين فكلاهما هالك والعياذ بالله.

روى أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب « فضائل القرآن » عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقرأ غير المغضوب عليهم وغير الضالين ، وكذلك حكى عن أبى بن كعب رضى الله عنه — وذلك محمول على أنهما كانا يقصدان بذلك التفسير لا التلاوة . إذ أنه من غير المعقول أن يخالفا إجماع الصحابة فى تلاوة سورة الفاتحة التى تقرأ فى كل صلاة ، وعمر أمير المؤمنين يقرأ بها فى صلاته بهم وإمامته إياهم صباح مساء !.

آمين

آمين ، ليست من الفاتحة بإجماع ، ومعناها ، اللهم استجب لنا ، ونقل القرطبى عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : سألت رسول الله

صلى الله عليه وسلم : مامعنى آمين قال : « رب افعل » وقال مقاتل : هو قوة للدعاء واستنزال للبركة . وقال الترمذى معناه : لاتخيب رجاءنا ، وكلها بمعنى قريب هو طلب الاستجابة . وأبعد قوم النجعة فقالوا آمين لفظ غير عربى منحوت من الإسم المصرى القديم آمون ، ولا دليل على مايزعمون !.

وآمين بعد تلاوة الفاتحة فى الصلاة ، وفى غيرها من السنة . عن وائل ابن حجر قال « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، فقال « آمين » يمد بها صوته » رواه أحمد وأبوداود والترمذى، وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إذا أمن الإمام فأمنوا فإن من وافق تأمينه تامين الملائكة غفر له ماتقدم من ذنبه » ، وقال ابن شهاب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول آمين ، رواه الجماعة إلا الترمذى لم يذكر قول ابن شهاب . وعن أبى هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تلا غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال آمين حتى يسمع من يليه من الصف الأول . رواه أبو داود وابن ماجه ، وقال حتى يسمعها أهل الصف الأول فيرتج بها المسجد .

وإلى مشروعية التأمين جهراً للامام والمأمون ذهب الشافعى ومالك فى رواية المدنيين ، وقال أبو حنيفة وبعض المدنيين والطبرى لايجهر بها . وروى ابن القاسم عن مالك وهو مذهب المصريين من المالكية أن الإمام لايؤمن محتجين بحديث أبى موسى رضى الله عنه قال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبنا فبين لنا سننا وعلمنا صلاتنا فقال « إذا صليتم فأقيموا صفوفكم ثم ليؤمكم أحدكم فإذا كبر فكبروا وإذا قال غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين يجبكم الله » أخرجه مسلم ، والسكوت عن ذكر الإمام فى

التأمين ، هنا لا ينهض حجة أمام صريح الأحاديث التى جاء فيهـــا ذكر تأمين الإمام .

والتأمين مستحب بعد كل دعاء روى أبو داود عن أبى مصبح المقرائى قال : كنا نجلس إلى أبى زهير النميرى ، وكان من الصحابة فيحدث أحسن الحديث ، فإذا دعا الرجل منا بدعاء قال اختمه بآمين ، فإن آمين مثل الطابع على الصحيفة ، قال أبو زهير : ألا أخبركم عن ذلك ؟ خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فأتينا على رجل قد ألح فى المسألة فوقف النبى صلى الله عليه وسلم يسمع منه . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أوجب إن ختم ، فقال له رجل من القوم بأى شىء يختم ؟ قال : بآمين فإنه إن ختم بآمين فقد أوجب » فانصرف الرجل الذى سأل النبى صلى الله عليه وسلم ، فأتى الرجل فقال له إختم يافلان وأبشر ، ولا جرم أن آمين براعة مقطع فى غاية الجمال والحسن ، وأى شىء أولى بهذه البراعة من فاتحة الكتاب والتوجه إلى الله بالدعاء .

تناسب وإنعـــام

« ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » سورة القمر الآية ١٧

ولا شك أن من تدبر الفاتحة الكريمة — وكل مؤمن مطالب بتدبرها فى تلاوته عامة وفى صلاته خاصة — رأى من غزارة المعانى وجمالها وروعة التناسب وجلاله ما يأخذ بلبه ويضىء جوانب قلبه . فهو يبتدىء ذاكراً تالياً متيمناً باسم الله الموصوف بالرحمة التى تظهر آثار رحمته متجددة فى كل شىء مستشعراً أن أساس الصلة بينه وبين خالقه العظيم هو هذه الرحمة التى وسعت كل شىء ، فإذا استشعر هذا المعنى ووقر فى نفسه انطلق لسانه بحمد هـذا الإله الرحمن الرحيم وذكره الحمد بعظيم نعمه وكريم فضله وعظيم آلائه

البادية فى تربيته للعوالم جميعاً ، فأجال بصيرته فى هذا المحيط الذى لا ساحل له ، ثم تذكر من جديد أن هذه النعم الجزيلة والتربية الجليلة ليست عن رغبة ولا رهبة . ولكنها عن تفضل ورحمة فنطق لسانه مرة ثانية بالرحمن الرحيم ، ولكن من كمال هذا الإله العظيم أن يقرن الرحمة بالعدل ويذكر بالحساب بعد الفضل فهو مع رحمته السابغة المتجددة سيدين عباده . ويحاسب خلقه يوم الدين « يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله » فتربيته لخلقه قائمة على الترغيب بالرحمة . والترهيب بالعدالة والحساب . وإذا كان الأمر كذلك فقد أصبح العبد مكلفاً بتحرى الخير والبحث عن وسائل النجاة وهو فى هذا أشد ما يكون حاجة إلى من يهديه سواء السبيل . ويرشده إلى الصراط المستقيم وليس أولى به فى ذلك من خالقه ومولاه . فليلجأ إليه وليعتمد عليه وليخاطبه بقوله « إياك نعبد وإياك نستعين » وليسأله الهداية من فضله إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم بمعرفة الحق واتباعه غير المغضوب عليهم بالسلب بعد العطاء والنكوص بعد الاهتداء وغير الضالين التائهين الذين يضلون عن الحق أو يريدون الوصول إليه فلا يوفقون للعثور عليه آمين . فهل رأيت تناسباً أدق أو ارتباطاً أوثق مما تراه بين معانى هذه الآيات الكريمات ؟ وتذكر وأنت تهيم فى أودية هذا الجمال ما يرويه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه فى الحديث القدسى الذى أوردناه آنفاً « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى » وأدم هذا التدبر والإنعام واجتهد أن تقرأ فى الصلاة أو غيرها على مكث وتمهل وخشوع وتذلل . وأن تقف على رؤوس الآيات وتعطى التلاوة حقها من التجويد والنغمات من غير تكلف ولا تطريب . أو اشتغال بالألفاظ من المعانى مع رفع الصوت المعتدل فى التلاوة العادية أو الصلاة الجهرية ، فإن ذلك يعين على الفهم ويثير ما غاض من شآبيب الدمع ، وما نفع القلب شىء أفضل من تلاوة فى تدبر وخشوع .

سـورة البقرة *

وهى مدنية إلا آية « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله » فقد نزلت بمنى فى حجة الوداع — وعدد آياتها ٢٨٦ آية .

فضلها :

روى الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل شىء سنام وإن سنام القرآن سورة البقرة ، وفيها آية هى سيدة آى القرآن » .

وروى مسلم عن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة » .

وروى البخارى ومسلم وابن حبان فى صحيحه واللفظ له عن أسيد بن حضير أنه قال : يا رسول الله بينما أنا أقرأ الليلة سورة البقرة إذ سمعت وجبة من خلفى فظننت أن فرسى انطلق . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اقرأ أبا عتيك » فالتفت فإذا مثل المصباح مدلى بين السماء والأرض ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اقرأ أبا عتيك » فقال : يا رسول الله فما استطعت أن أمضى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تلك الملائكة تنزلت لسورة البقرة أما إنك لو مضيت لرأيت العجائب » .

وروى مسلم والنسائى والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول

(*) نشرت بالعدد الثالث من مجلة الشهاب الصادر فى غرة ربيع الأول ١٣٦٧ هـ (يناير ١٩٤٨ م) .

الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان يفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة » .

وروى الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً وهم ذوو عدد فاستقرأ كل رجل منهم — يعنى — ما معه من القرآن ، قال : فأتى على رجل من أحدثهم سناً فقال « ما معك يا فلان » قال : معى كذا وكذا وسورة البقرة فقال « أمعك سورة البقرة ؟ » قال : نعم . قال « اذهب فأنت أميرهم » فقال رجل من أشرافهم والله ما منعنى أن أتعلم البقرة إلا خشية ألا أقوم بها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعلموا القرآن واقرأوه فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه كمثل جراب محشو مسكا يفوح ريحه فى كل مكان ، ومن تعلمه فيرقد وهو فى جوفه فمثله كمثل جراب أوكىء على مسك » .

قال ابن العربى سمعت بعض أشياخى يقول عن البقرة فيها ألف أمر وألف نهى وألف حكم وألف خبر ، وقال خالد بن معدان هى فسطاط القرآن ، وذلك لعظمها وبهائها وكثرة أحكامها ومواعظها . وفى كتاب الاستيعاب لابن عبد البر كان لبيد بن ربيعة بن عامر بن مالك بن جعفر ابن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من شعراء الجاهلية ، أدرك الإسلام فحسن إسلامه ، وترك قول الشعر فى الإسلام وسأله عمر فى خلافته من شعره واستنشده فقرأ سورة البقرة . فقال إنما سألتك عن شعرك . فقال : ما كنت لأقول بيتاً من الشعر بعد إذ علمنى الله البقرة وآل عمران . فأعجب عمر قوله وكان عطاؤه ألفين فزاده خمسمائة . وقد قال كثير من أهل الأخبار إن لبيداً لم يقل شعراً منذ أسلم ، وقال بعضهم لم يقل فى الإسلام إلا قوله :

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

وفي موطأ مالك أنه بلغه أن ابن عمر مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها وذكر أبو بكر أحمد بن على بن ثابت الحافظ في كتابه المسمى « أسماء من روى عن مالك » عن مرداس بن محمد بن بلال الأشعرى قال : حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر قال تعلم عمر البقرة في اثنتى عشرة سنة فلما ختمها نحر جزوراً شكراً لله .

حكمة التسمية :

قال المفسرون سميت بهذا الإسم لما ورد فيها من ذكر قصة « البقرة » ويبدو لى أن الحكمة فى هذه التسمية أعمق من هذا الذى ذكر — ولعلها لفت النظر إلى هدم هذه العقيدة فى نفوس الناس — عقيدة تقديس البقرة وعبادتها من دون الله ، والمقصد الأول من الأديان وبالتالى من إنزال القرآن وتقرير وحدانية الله تبارك وتعالى وصرف وجوه عباده وقلوبهم إليه ، وتنزيهه عن كل ما لا يليق بجلاله ، ولقد كانت البقرة أوفر أنواع الحيوان حظاً من عبادة البشر وتقديسهم ، فالتاريخ يحدثنا عن قدماء المصريين ، وكيف كانوا يبالغون فى تقديس هذا الحيوان وعبادته ، ويعنون أشد العناية باختيار العجل « أبيس » بشروط خاصة ، وكيفيات خاصة حتى سرت منهم هذه العادة إلى الإسرائيليين رغم ما كان فيهم من أنبياء ، وما أنزل الله عليهم من كتب ، ولقد عرفت عبادة البقر فى معظم القارة الآسيوية كذلك بين الآشوريين والبابليين والإيرانيين والهنود ولا زالت إلى اليوم معبود الهندوس الأعظم ، وسرى إلى العرب شيء من هذه العقيدة فكان عنها السائبة والبحيرة والوصيلة والحامى وما يتصل بها من شعائر ، ولقد استمر ظل هذه العقائد الفاسدة

ممتداً حتى وصل إلى بعض المجتمعات الإسلامية وكنا نسمع إلى وقت قريب عن « عجل السيد » ونظرائه فى كثير من البلاد — ولهذا كان من اللازم أن تحارب هذه العقيدة ، وأن تجتث من أصولها وأن تسمى أطول سورة فى القرآن باسم الجزء الذى تعرض للبقرة منها وفيه الأمر بذبحها بأيدى الذين سرى إلى نفوسهم تقديسها وتكريمها من بنى إسرائيل تقليداً للمصريين ونقلا عن شرائعهم حينذاك والله أعلم .

استعراض عام للمقاصد الكلية فى السورة الكريمة :

من الخير أن نضع بين يدى الناظرين فى كتاب الله تبارك وتعالى هذه الصورة المجملة لمقاصد السورة المباركة بأرقام الآيات حتى تكون مفتاحاً للتدبر والتفكر حين التلاوة ومعواناً على الدرس والبحث فنقول : بدأت هذه المقاصد فى السورة الكريمة بمقدمات عامة خلاصتها :

حكمة الاستفتاح بالحروف المفردة ، الآية (١) ثم عرض الدعوة ممثلة فى كتاب حق الآية (٢) ثم بيان موقف الناس منها وتقسيمهم إلى مؤمنين وكافرين ومنافقين وصفات كل وخصائصه ، الآيات (٢ — ٢٠) وعموم الدعوة إلى عبادة الله وحده ونفى الشرك به (٢١ — ٢٢) والتحدى بإعجاز القرآن للبشر (٢٣) ، وتسجيل جزاء المصدقين والمكذبين (٢٤ — ٢٥) وحكمة القرآن فى التمثيل وأثر ذلك فى الناس (٢٦ — ٢٧) ، وتلخيص أطوار الحياة الإنسانية وخلق الكائنات ، والصلة بين الإنسان والجن والملائكة ، وختام هذه المقدمات بتقرير جزاء المهتدين والمكذبين (٢٨ — ٣٩)

ثم عرضت بعد ذلك لناحية تطبيقية ، هى استعراض تاريخ الأمة اليهودية

استعراضاً تظهر فيه أخلاقها وأعمالها وتتخلله قواعد ثابتة من سنن الله التى لا تتغير . والحكمة فى اختيار قصة بنى إسرائيل وكثرة تكرارها فى سور القرآن الكريم واضحة ، فإن شريعتها هى أقدم الشرائع السماوية المعروفة الآن ، وما زالت هذه الأمة مشكلة العالم الإنسانى ومصدر البلاء للبشرية حتى يأتى أمر الله .

وقد بدأ هذا الاستعراض بتذكيرهم بنعمة الله وعهده عندهم ، ومطالبتهم بالوفاء وتوعدهم بالجزاء الآيات (٤٠ — ٤٨) ثم تذكير الله إياهم بالنجاة من فرعون وإنزال التوراة وقبول التوبة بعد الخطيئة والحياة بعد الصعق والسعة فى الرزق وهم مع ذلك يأبون إلا العناد والمخالفة والتمرد على الحق والعدوان على أنبياء الله الآيات (٤٩ — ٦١) وتقرير قاعدة التبرير بالإيمان . وأن الإيمان هو لب الدين وأصل النجاة فى كل الشرائع السماوية (٦٢) ثم ذكر حادثة الطور والسبت والبقرة والقتيل وقسوة قلوبهم من بعد ذلك كله مما يؤدى إلى اليأس من هدايتهم ويعزى عن ضلالهم وسوء طويّتهم (٦٣ — ٧٥) ثم تسجيل خلق النفاق والكذب عليهم (٧٦ — ٧٩) . وتقرير قاعدة الجزاء بالعمل لا بالتمنى والادعاء (٨٠ — ٨٢) وبيان أصول شريعة موسى عليه السلام وهى أصول الشرائع عامة (٨٣) وخروجهم عليها بعد إقرارهم بها استكباراً وبغياً وحسداً وحرصاً على الحياة (٨٤ — ٩٦) ثم التعرض لهدم عقائدهم الفاسدة فى الملائكة وفى السحر (٩٧ — ١٠٣) وكشف خبيئة نفوسهم للمؤمنين من الخبث والحسد (١٠٤ — ١٠٥) وتقرير السنة الإلهية فى التذكير بآيات الله وقدرته على ذلك ووجوب التسليم للرسل عليهم الصلاة والسلام (١٠٦ — ١٠٨) وبيان داء الحسد فى نفوس أهل الكتاب ودوائه فى نفوس المؤمنين وأعمالهم وتقرير قاعدة أن الجنة

إنما تكون جزاء الإيمان بالحقيقة والجوهر لا بالتسمية والمظهر (١٠٩ — ١١٢) والتنديد بالخلاف الشكلى بين اليهود والنصارى مع بعدهم عن لب الدين وحقيقته وتعطيلهم لشعائر الله وتعصبهم لما هم عليه من الباطل ثم تذكيرهم بنعمة الله وتوعدهم بالجزاء إن أعرضوا يوم لا تجزى نفس عن نفس شيئاً (١١٣ — ١٢٣) .

ولما كان بنو إسرائيل هم أحفاد إبراهيم عليه السلام وإليه ينتهى شرفهم وتفضيلهم تناولت السورة بعد ذلك طرفاً من سيرته فيه تقرير إمامته عملياً بالبيت الحرام ونظرياً بملته الحنيفية السمحة مع بيان أن هذه الحنيفية هى حقيقة اليهودية والنصرانية والإسلام وأنه وصية إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب لأبنائهم الأسباط عليهم الصلاة والسلام مع بيان أن الخلاف فى القبلة والملة إنما أساسه التعصب مع أن الكثير يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم وأن واجب المؤمنين استباق الخير واستقبال قبلة الحق أينما كانوا (١٢٤ — ١٥٠) .

ثم اتبعت السورة هذا التطبيق التاريخى ببيان بعض الأصول التى تقوم عليها الشريعة المطهرة من تقرير مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم والوصية بالذكر والشكر والصبر والصلاة والجهاد وتسجيل سنة الله فى القائمين بالدعوات من الامتحان والاختبار وعقوبة الكاتمين لآيات الله والكافرين به والمنكرين لوحدانيته وبيان أن التقليد لا يدفع العقوبة وأن أساس النجاة أكل الحلال الطيب ومخالفة الشيطان (١٥١ — ١٧٦) .

كما عرضت بعد تقرير هذه الأصول إلى ما يتصل بها من فروع الأحكام المتعلقة بالأفراد فى عقائدهم أو أعمالهم كحقيقة البر وحكمة القصاص والوصية والصيام والدعاء والاعتكاف والحج والعمرة والمحافظة على الأموال وتسجيل قاعدة وجوب مخاطبة الناس بما يعقلون (١٧٧ — ٢٠٣) .

وتناولت الآيات بعد ذلك بحوثاً تحليلية فى مواقف الناس بالنسبة للدعوات من حيث اختلاف طبائعهم وترددهم فى القبول وأن من سنة الله امتحانهم فى أنفسهم بالقتال والانتقام وفى أموالهم بالبذل والعطاء وأن الجزاء مرتب على النجاح فى هذا الامتحان (٢٠٤ — ٢١٨) .

وعادت بعد هذا البيان إلى تقرير كثير من الأحكام الفرعية المتصلة بالبيوت والمجتمعات فذكرت حكم الخمر والميسر والإنفاق والصدقات وفضل رعاية اليتيم وحكم نكاح المشركين والمشركات وآداب مخالطة النساء وأثر اليمين اللغو والمنعقدة وأحكام الإيلاء والعدة والطلاق بصوره المختلفة ثم الإرضاع والمتعة وعدة الوفاة وصلاة القتال (٢١٩ — ٢٤٢) .

ثم أردفت هذا البيان الوافى فى الأحكام الشرعية بتقرير سنة الله تبارك وتعالى فى نهضات الأمم وأنها إنما تقوم على حب الموت ودوام البذل وتقرير الجهاد وحسن الطاعة واحترام النظام والاعتماد بعد ذلك كله على تأييد الله مؤيداً ذلك بقصة طالوت وجالوت وأن ذلك شأن الناس فى كل زمان ومكان (٢٤٣ — ٢٥٤) .

واقتضى هذا السياق العودة إلى التذكير بالأصل الذى تقوم عليه الشرائع والأديان وهو تنزيه الله تبارك وتعالى ومعرفته معرفة طواعية واختيار وأن الإيمان وحده هو أساس صلة البشر بالله وأن سر الحياة لا يعلمه أحد سواه (٢٥٥ — ٢٦٠) .

ولما كان المال قوام الحياة عرضت السورة الكريمة لجملة صالحة من أحكام الصدقات والأموال من الإنفاق فى سبيل الله والزكاة والبيع والربا والقرض والدين والتجارة والرهن (٢٦١ — ٢٨٣) .

وكان مسك الختام إعلان التسليم لرب العالمين والإيمان بوحدة قواعد

الدين وتقرير قاعدة دفع الحرج عن المكلفين وهذا الدعاء والابتهال فى إخبات المؤمنين وخشوع الصادقين (٢٨٤ — ٢٨٦) .

الحروف المفردة فى أوائل السور

« ألم » وما شابهها فى أوائل السور القرآنية .

كثرت أقوال المفسرين فى ذلك وأحقها بالنظر والتقدير آراء ثلاثة :

أنها للفت النظر للاستماع للقرآن حين يتلى فهى أداة تنبيه وخاصة للمشركين الذين كانوا يعلمون تمام العلم أن محمداً عليه الصلاة والسلام أمى لم يقرأ ولم يكتب قبل أن يوحى إليه هذا القرآن فنطقه بهذه الحروف على الهيئة التى لا يحذقها إلا القراء والكاتبون أمر يستدعى الانتباه ويستلفت النظر .

أو أنها إشارة إلى الإعجاز كأنه يقول لهم إن هذه الألفاظ والجمل والعبارات والآيات قد ركبت من هذه الحروف البسيطة التى تعرفونها جميعاً ومع ذلك فقد أعجزتهم عن الإتيان بمثل هذا التركيب مع أن هذه هى مادته الأولية بين أيديكم ، فلا مندوحة لكم بعد هذا من الإقرار بأن هذا الكتاب المركب هذا التركيب من عند الله لا من صنع البشر .

أو أنها إشارة إلى فضل الكتابة وسمو منزلتها والتفاؤل بأنه كما كانت معرفة البشر للكتابة إيذاناً بانتقالهم من طور إلى طور فى مدارج الرقى والكمال فكذلك الاهتداء بهذه الرسالة سيكون انتقالا جديداً إلى درجة أعلى وأكمل فى مدارج الحضارة الإنسانية والترقى الاجتماعى، وقد جاء القرآن حريصاً على إبراز هذا المعنى حتى كانت أول سورة أنزلت منه فى أرجح الأقوال « إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم » .

وكل ماعدا هذه الآراء الثلاثة من أقوال المفسرين ظن لايغنى من الحق شيئاً ، ومن طرائف ماذهب إليه بعضهم فى ذلك استخلاصه هذا التركيب من هذه الحروف فى أوائل السور بعد حذف المكرر منها « نص حكيم قاطع له سر » كأنه يريد أن يقول إنها وصف للقرآن ولا دليل على هذا القول ولا سند له .

القرآن الكريم وأحقيته

« ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين »

والمراد بالكتاب القرآن الكريم . والريب الشك . فالآية تقرر أن هذا القرآن من شأنه الحق والصدق فلا يصح أن يخالط أحداً الشك فى صدقه وأحقيته وأنه من عند الله تبارك وتعالى ، وأن مافيه هو الخير والهداية للناس . وقد يقف بعض القراء على — لاريب — ويستأنف القراءة بما بعدها فيقرأ فيه هدى للمتقين وهو توجيه متكلف ، وإن صح المعنى ويضعفه ماجاء فى فاتحة سورة السجدة « ألم تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين » إذ لايحتمل المعنى الاستئناف فيها كما احتمله فى الأولى .

وقد تكررت الإشارة إلى أحقية القرآن وصدقه وفضله وبركته وإعزازه وسلامته فى كثير من الآيات مثل قوله تعالى « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » سورة فصلت الآية ٤١ « كتاب أنزلناه إليك مباركا ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب » سورة ص الآية ٢٩ « والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير » سورة فاطر الآية ٣١ .

كما أشارت الآيات أيضاً إلى الأدلة المعقولة المقبولة على هـذا الصدق ونفى الريب والشك والظنة فى مواضع كثيرة ومن هـذه الأدلة استقامة نظمه وانسجام معانيه « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيـه اختلافاً كثيراً » سورة النساء الآية ٨٢ . وذلك يتضح بإنعام النظر وكثرة التدبر . ومنها إعجازه البالغ المحيط الشامل مع التحدى الثابت الدائم « قل لئن اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثل هـذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » سورة الإسراء الآية ٨٨ . وسنفرد لهذا باباً خاصاً فى هذا التفسير إن شاء الله عند أول مناسبة . ومنها أنه جاء على فترة من الرسل وفى غفلة من النبى صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك وبعد أن بلغ السن التى يستبعد معها الكذب والاختلاق والتوهم وخصوصاً مع من عرف طيلة شبابه بالصادق الأمين « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا إيت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم » سورة يونس الآية ١٥ . ومنها نزوله على أمى لم يدخل مدرسة ولم يتعلم فى جامعة ولم يقرأ ولم يكتب من قبل « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون » سورة النمل الآية ٤٨ . ومنها موافقته للعقل والمنطق وغزارة ما فيـه من العلم والمعرفة وصحة ما أشار إليه من نظم الحياة وقواعد الاجتماع وانطباق ما فيه على الحقائق الكونية الثابتة مهما ارتقى البحث أو تطورت الكشوف والمخترعات « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » سورة فصلت الآية ٥٣ . والأدلة والشواهد على ذلك كثيرة متضافرة كلها تنطق بأن هذا الكتاب فى نظمه وأسلوبه ومقاصده ومعانيه لا يمكن أن يلصق به شك أو ريب فى أنه من عند الله .

الهـــداية الربانية

الهدى : الإرشاد والدلالة على الطريق المستقيم وقد جاء هذا الوصف فى القرآن الكريم مصاحباً للكتب السماوية جميعاً ، فالقرآن هدى للمتقين والتوراة هدى ونور ، والإنجيل هدى وموعظة الخ وقد تقدم فى تفسير سورة الفاتحة أن الله تبارك وتعالى منح البشر هدايات هى هداية الشعور والوجدان والفطرة ثم هداية الحواس الظاهرة ثم هداية العقل والتفكير ثم هداية الشرائع والكتب التى تبصر العقل بالخير والشر وترجح أمامه دواعى الخير وتعظه وتزجره عن وساوس الشر وقد تكتب هذه الهداية للصالحين من عباد الله تبارك وتعالى « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » سورة الأنعام الآية ٩٠ كما ثبتت بأعلى درجاتها للنبى صلى الله عليه وسلم بهذا الإسلام « قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيما ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » سورة الأنعام الآية ١٦١ وأمرنا الله تبارك وتعالى أن نسأله إياها فى صلواتنا فكان من آيات الفاتحة « اهدنا الصراط المستقيم » .

المتقون وأوصافهم

التقوى والاتقاء بمعنى ، وأصل المادة وقى يقى ومنه الوقاية وهو ما يحول بين الإنسان وما يكره وقد ورد لفظ التقوى والأمر بها فى القرآن الكريم مضافاً إلى الله تبارك وتعالى فى كثير من الآيات مثل قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » سورة آل عمران الآية ١٠٢ وقوله « فاتقوا الله ما استطعتم » سورة التغابن الآية ١٦ وقوله « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب » سورة البقرة الآية ١٩٧ « وإياى فاتقون » سورة البقرة الآية ٤١ .

وكثيراً ما تختم الآيات الكريمة وبخاصة التى تتضمن أحكاماً تتصل بالنفس أو بالشئون الشخصية أو نحوها من الأمور التى لا تقوم عليها الدلائل الحسية الظاهرة بالأمر بتقوى الله تبارك وتعالى وبيان جزاء هذه التقوى فى الدنيا والآخرة كما قال تبارك وتعالى « وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون» سورة البقرة الآية ١٨٩ «واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون » سورة البقرة الآية ٢٠٣ « واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شىء عليم » سورة البقرة الآية ٢٣١ «ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب » سورة الطلاق الآية ٢ ، ٣٢ « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا» سورة الطلاق الآية ٤ « ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا » سورة الطلاق الآية ٥ وسنشير إلى المقصود بهذا الختام عند كل آية إن شاء الله .

كما جاء لفظ التقوى كذلك مضافاً إلى النار والمراد التحفظ مما يوقع فيها كما ورد فى قوله تعالى « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » سورة البقرة الآية ٢٤ « واتقوا النار التى أعدت للكافرين» سورة آل عمران الآية ١٣١ «يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد » سورة التحريم آية ٦ وقد ورد فى كثير من الآيات أن مثوبة التقوى الجنة مع النجاة من النار « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » سورة آل عمران الآية ١٣٣ واعتبرت مقياس الكرامة الإنسانية « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » سورة الحجرات الآية ١٣ .

قال القرطبى : التقوى يقال أصلها فى اللغة قلة الكلام . حكاه ابن فارس قلت ومنه الحديث (التقى ملجم والمتقى فوق المؤمن والطائع) وهو الذى

يتقى بصالح عمله وخالص دعائه عذاب الله تعالى مأخوذ من اتقاء المكروه مما يجعله حاجزاً بينك وبينه قال الشاعر :

فألقت قناعاً دونه الشمس واتقت بأحسن موصولين كف ومعصم

وخرج أبو محمد عبد الغنى الحافظ من حديث سعيد بن زر بن أبى عبيدة عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن ابن مسعود قال : « قال يوماً لابن أخيه يا ابن أخى ترى الناس ما أكثرهم قال : نعم : قال لا خير فيهم إلا تائب أو تقى ثم قال يابن أخى ترى الناس ما أكثرهم قلت بلى قال لا خير فيهم إلا عالم أو متعلم » .

وقال أبو يزيد البسطامى « المتقى من إذا قال قال لله ، ومن إذا عمل عمل لله » وقال أبو سليمان الدارانى « المتقون الذين نزع الله من قلوبهم حب الشهوات » وقيل المتقى الذى اتقى الشرك وبرىء عن النفاق . قال ابن عطية وهذا فاسد لأنه قد يكون كذلك وهو فاسق ، وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبيا عن التقوى . فقال هل أخذت طريقاً ذا شوك ؟ قال نعم . قال فما عملت فيه . قال : تشمرت وحذرت قال : فذاك التقوى .. والتقوى فيها جماع الخير كله وهى وصية الله فى الأولين والآخرين وهى خير مايستفيده الإنسان . .

وروى ابن ماجه فى سننه عن أبى إمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وأن نظر إليها سرته وإن أقسم عليها أبرته وإن غاب عنها حفظته فى نفسها وما له » وقال سهل بن عبد الله «لامعين إلا الله ، ولا دليل إلا رسوله ، ولا زاد إلا التقوى ، ولا عمل إلا الصبر عليه ، ومن أراد أن

تصح له التقوى فليترك الذنوب » وقال طلق بن حبيب « التقوى عمل بطاعة الله على نور من الله مخافة عقاب الله » وكان أبو الحسين الزنجانى يقول « من كان رأس ماله التقوى كلت الألسن عن وصف ربحه » وقيل أصل التقوى إتقاء الشرك ، وبعده إتقاء المعاصى والسيئات ، وبعده إتقاء الشبهات . وقال فى تفسير المنار ماخلاصته معنى إتقاء الله تعالى إتقاء عذابه وعقابه ، وإنما تضاف التقوى إلى الله تعالى تعظيما لأمر عذابه وعقابه ، وإلا فلا يمكن لأحد أن يتقى ذات الله تعالى ، ولا تأثير قدرته ولا الخضوع الفطرى لمشيئته ، فالمتقى هو من يحمى نفسه من العقاب ، ولا بد فى ذلك أن يكون عنده نظر ورشد يعرف بهما أسباب العقاب والآلام فيتقيها . والعقاب الإلهى الذى يجب على الناس إتقاؤه قسمان : دنيوى ، وأخروى . وكل منهما يتقى باتقاء أسبابه وهى أمران : مخالفة دين الله وشرعه ، ومخالفة سنته فى نظام خلقه . فأما عقاب الآخرة فيتقى بالإيمان الصحيح والتوحيد الخالص والعمل الصالح واجتناب ما ينافى ذلك من الشرك والكفر والمعاصى والرذائل ، وذلك مبين فى كتاب الله وسنة رسوله ، وأفضل مايستعان به على فهمهما واتباعهما سيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة الأولين من آل الرسول صلى الله عليه وسلم وعلماء الأمصار . وأما عقاب الدنيا فيجب أن يستعان على اتقائه بالعلم بسنن الله تعالى فى هذا العالم ولا سيما سنن اعتدال المزاج وصحة الأبدان وأمثلتها ظاهرة وسنن الاجتماع البشرى . فإتقاء الفشل والخذلان فى القتال يتوقف على معرفة نظام الحرب وفنونها واتقان آلاتها وأسلحتها التى ارتقت فى هذا العصر ارتقاء عجيباً كما يتوقف على أسباب القوة المعنوية من اجتماع الكلمة واتحاد الأمة والصبر والثبات والتوكل على الله واحتساب الأجر عنده .

الإيمـــان بالغيب*

« الذين يؤمنون بالغيب »

الإيمان فى اللغـة : التصديق ويتعـــدى بالباء واللام وفى الشرع : التصديق الجازم المقترن بإذعان النفس وقبولها وتسليمها بما أشار إليه حديث جبريل عليه السلام حين قال للنبى صلى الله عليه وسلم فأخبرنى عن الإيمان ؟ قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره» وهو مروى بطوله فى الصحاح . وآية الإيمان العمل . وفى كتب العقائد والفرق تفصيلات وتفاريع وكلام طويل عن الإيمان وما يتصل به وفى آيات القرآن الكريم بيان واف لحقيقة الإيمان الشرعى وعلاماته وكل ما يتصل به سنعرض له فى موضعه إن شاء الله تعالى .

والغيب فى اللغة : كل ما غاب عنك ، والغيابة الأجمة وهى مجتمع الشجر يغاب فيه . ويسمى المطمئن من الأرض الغيب لأنه غاب عن البصر . والغيب فى الشرع : كل ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم مما لا يقع تحت الحس فى عالم الشهادة كعذاب القبر والحشر ، والنشر ، والصراط ، والميزان ، وصفات البارى جل وعلا ونحو ذلك .

والإيمان بهذا الغيب من صفات المتقين وهو دليل على حسن استعداد النفوس لتلقى حقائق الدين والتصديق بها والعمل لها ، ولهذا جاء فى صدر هذه الصفات وهو أفضل أنواع الإيمان وأعلاها .

(*) نشرت بالعدد الرابع من مجلة الشهاب الصادر فى غرة ربيع الآخر ١٣٦٧ هـ (فبراير سنة ١٩٤٨ م) .

قال سعيد بن منصور حـــدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمارة بن عمير عن عبد الرحمن بن يزيد قال : كنا عند عبد الله بن مسعود جلوساً فذكرنا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وما سبقونا به . فقال عبد الله : إن أمر محمد صلى الله عليه وسلم كان بيناً لمن رآه ، والذى لا إله غيره ما آمن أحد قط إيماناً أفضل من إيمان بغيب ، ثم قرأ : « الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب » إلى قوله « المفلحون » وهكذا رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه والحاكم فى مستدركه من طرق عن الأعمش وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

وروى أحمد وابن مردويه فى تفسيره بسنده واللفظ له عن صالح بن جبير قال : قدم علينا أبو جمعة الأنصارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المقدس يصلى فيه ومعنا يومئذ رجاء بن حيوة رضى الله عنه ، فلما انصرف خرجنا نشيعه فلما أراد الانصراف قال : إن لكم جائزة وحقاً ، أحدثكم بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلنا : هات رحمك الله قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنا معاذ بن جبل عاشر عشرة ، فقلنا يا رسول الله هل من قوم أعظم منا أجراً ؟ آمنا بالله واتبعناك قال : « ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحى من السماء ، بل قوم بعدكم يأتيهم كتاب من بين لوحين يؤمنون به ويعملون بما فيه أولئك أعظم منكم أجراً مرتين » .

وروى الحسن بن عرفه العبدى قال : حدثنا اسماعيل بن عياش الحمصى عن المغيرة بن قيس التميمى عن ابن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أى الخلق أعجب إليكم إيماناً ؟ قالوا الملائكة قال :

ومالهم لا يؤمنون وهم عند ربهم قالوا : فالنبيون قال وما لهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم ؟ قالوا . فنحن قال : ومالكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا إن أعجب الخلق إلىّ أيماناً لقوم يكونون من بعدكم يجدون صحفاً فيها كتاب يؤمنون بما فيها . قال أبو حاتم الرازى المغيرة بن قيس المصرى منكر الحديث . وقال الحافظ ابن كثير تعقيباً على هذا : لكن قد روى أبو يعلى فى مسنده وابن مردوديه فى تفسيره ، والحاكم فى مستدركه من حديث محمد بن حميد — وفيه ضعف — عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم بمثله أو نحوه وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقد روى نحوه عن أنس بن مالك مرفوعاً والله أعلم .

قال الطبرى وحدثت عن عمار بن الحسن قال حدثنى ابن أبى جعفر عن أبيه عن العلاء بن المسيب بن رافع عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص عن عبد الله قال الإيمان التصديق . ومعنى الإيمان عند العرب التصديق ، فيدعى المصدق بالشىء قولا مؤمناً به ، ويدعى المصدق قوله بفعله مؤمناً ، ومن ذلك قول الله جل ثناؤه : « وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » يعنى وما أنت بمصدق لنا فى قولنا . وقد تدخل الخشية لله فى معنى الإيمان الذى هو تصديق القول بالعمل . والإيمان كلمة جامعة للاقرار بالله وكتبه ورسله وتصديق الإقرار بالفعل ، وإذا كان ذلك كذلك ، فالذى هو أولى بتأويل الآية ، وأشبه بصفة القوم أن يكونوا موصوفين بالتصديق بالغيب قولا واعتقاداً وعملا ، إذ كان جل ثناؤه لم يحصرهم من معنى الإيمان على معنى دون معنى بل أجمل وصفهم به من غير خصوص شىء من معانيه ، أخرجه من صفتهم بخبر ولا عقل . كما أورد فى معنى الغيب عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم . أما الغيب فما غاب عن العباد من

أمر الجنة وأمر النار وما ذكر الله تبارك وتعالى فى القرآن لم يكن تصديقهم بذلك يعنى المؤمنين من العرب من قبل أصل كتاب علم كان عندهم وعن قتادة قال آمنوا بالجنة والنار والبعث بعد الموت وبيوم القيامة . وكل هذا غيب ، وعن الربيع بن أنس آمنوا بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه وآمنوا بالحياة بعد الموت فهذا كله غيب .

وليس المراد بالإيمان بالغيب التسليم الأعمى بدون دليل أو نظر أو برهان مما يؤدى إلى اعتقاد الخرافات والتصديق بالأوهام والإيمان بما لا يتفق مع الحقائق العليا التى جاء بها الدين الحنيف فقد نهينا عن مثل هذا الإيمان الضعيف المتهافت ، وقد أمرنا بالنظر فى ملكوت السموات والأرض وتقدير نعمة الله علينا بالإدراك والعقل ، واعتبر التفكر عبادة من أجل العبادات الموصلة إلى معرفة الخالق جل وعلا وكمال الإيمان به وجعل العقل مناط التكليف ومدار الثواب والعقاب ، وتردد ذكره فى القرآن الكريم أكثر من أربعين مرة مقروناً بالحث على استخدامه فيما خلق له ، فلا يمكن أن يكون معنى ذلك تشجيع الاستسلام للأوهام بدون نظر أو برهان ، ولكن المراد — والله أعلم — أن طبائع البشر مختلفة فمنها الحجرى المتصلب المكابر المعاند الذى لا يؤمن إلا بما يرى بعينه ويدركه بحاسته الكثيفة ، وقد تدفعه الأهواء والأغراض الفاسدة إلى المكابرة حتى فى هذا المحسوس وقد وردت الإشارة إلى هذا الصنف من البشر فى كثير من آيات القرآن الكريم من مثل قول الله تبارك وتعالى فى بنى إسرائيل « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون » سورة البقرة الآية ٧٤ وقوله تعالى « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين

لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » سورة الأنفال الآية ٢٣ وقوله تعالى « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » سورة البقرة الآية ٧٥ فهؤلاء وأمثالهم لا يمكن أن تنفع فيهم موعظة أو تشرق أرواحهم بحقائق الإيمان .

كما أن من النفوس البشرية المشرق المستنير اللين المستعد لتلقى الحق والإذعان له وهو من الشفافية والصفاء والإشراق بحيث يدرك الحقائق بحاسة أخرى هى فوق الحس والشم والذوق والسمع والبصر ، وفى هؤلاء وأمثالهم يقول الحق تبارك وتعالى « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء » سورة الزمر الآية ٢٤ .

ولا ينكر هذا التفاوت فى طبائع النفوس البشرية إلا جاحد مكابر من الصنف الأول فإنه مشاهد ملموس . فالمراد بالذين يؤمنون بالغيب هو هذا الصنف المشرق الشفاف من النفوس الطيبة اللينة الحسنة الاستعداد لتقبل الحقائق وإن جاءتها عن غير طريق الحواس . قال الأستاذ الإمام فى هذا المقام ما نصه « وصاحب هذا الاعتقاد واقف على طريق الرشاد ، وقائم على أول النهج لا يحتاج إلا إلى من يدله على المسلك ويأخذ بيده إلى الغاية ، فإن من يعتقد بأن وراء المحسوسات موجودات يصدق بها العقل وإن كان لا يأتى عليها الحس إذا أقمت له الدليل على وجود فاطر السموات والأرض المستعلى عن المادة ولواحقها المتصف بما وصف به نفسه على ألسنة رسله سهل عليه التصديق وخف عليه النظر فى جلى المقدمات وخفيها ، وإذا جاء الرسول

بوصف اليوم الآخر أو بذكر عالم من العوالم التى استأثر الله بعلمها كعالم الملائكة مثلا لم يشق على نفسه تصديق ما جاء به الخبر بعد ثبوت النبوة ، لهذا جعل الله سبحانه هذا الوصف فى مقدمة أوصاف المتقين الذين يجدون فى القرآن هدى لهم ، وأما من لا يعرف من الموجود إلا المحسوس ويظن أن لا شىء وراء المحسوسات وما اشتملت عليه فنفسه تنفر من ذكر ما وراء مشهوده أو ما يشبه مشهوده وقلما تجد السبيل إلى قلبه إذا بدأته بدعواك ، نعم قد توصلك المجاهدة بعد مرور الزمان فى إيراد المقدمات البصيرة والأخذ به فى الطرق المختلفة إلى تقريبه مما تطلب ولكن هيهات أن ينصرك الصبر أو يخضعه القهر حتى يتم لك منه الأمر ، فمثل هذا إذا عرض عليه القرآن نبا عنه سمعه ولم يجمل من نفسه وقعه فكيف يجد فيه هداية أو منقذاً من غواية

ولما كان الإيمان بالغيب يطلق عند الناس على ذلك الاستسلام التقليدى الذى لم يأخذ من النفس إلا ما أخذ اللفظ من اللسان وليس له أثر فى الأفعال لأنه لم يقع تحت نظر العقل ولم يلحظه وجدان القلب بل أغلقت عليه خزانة الوهم ، ومثل هذا الذى يسمونه إيماناً لا يفيد فى إعداد القلب للاهتداء بالقرآن ، لما كان هذا شأنهم من الله علينا ببيان يشعر بحقيقة ما أراده الله تعالى من معنى الإيمان فذكر علامات المؤمنين بالغيب الذين ينتفعون بهداية القرآن بالجمل الآتية .

إقامة الصلاة

« ويقيمون الصلاة »

الصلاة : أصلها فى اللغة الدعاء ومنه قوله عليه الصلاة والسلام « إذا دعى أحدكم إلى طعام فليجب ، فإن كان مفطراً فليطعم ، وإن كان صائماً فليصل » أى

فليدع على الأشهر ، ولما ولدت أسماء عبد الله بن الزبير أرسلته إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، قالت أسماء ثم مسحه وصلى الله عليه أى دعا له ، ومنه قوله تعالى « وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » أى ادع لهم ، وقال الأعشى :

تقول بنتى وقد قربت مرتحلا يارب جنب أبى الأوصاف والوجعا
عليك مثل الذى صليت فاغتمضـــــى نوماً فإن لجنب المرء مضطجعا

أى مثل الذى دعوت به ، ومن هذا المأخذ اشتقت الصلاة شرعاً ، وقيل بل هى مأخوذة من الصلا ، وهو عرق فى وسـط الظهر ، وقيل مأخوذة من اللزوم ، أو من صليت العود بالنار إذا قومته ولينته بالصلاء ، وقيل هى إسم علم وضع للعبادة المعروفة فإن الله تعالى لم يخل زماناً من شرع ، ولم يخل شرعاً من صلاة ، هكذا قال أبو نصر القشيرى .

ومن معانى الصلاة : الرحمة . ومنه اللهم صلى على محمد . والعبادة ومنه الآية الكريمة « وما كان صلاتهم عند البيت » أى عبادتهم . والقراءة ومنه « ولا تجهر بصلاتك ، ولا تخافت بها » ، اهـ ملخصاً من القرطبى .

ويراد بالصلاة شرعاً : العبادة المعروفة من الأقوال والأفعال المفتتحة بالتكبير المختتمة بالتسليم ، وإقامتها أداؤها بأركانها وسننها وهيآتها فى أوقاتها . قال ابن عباس ويقيمون الصلاة : أى يقيمون الصلاة بفروضها ، وحكى الضحاك عنه إقامة الصلاة : إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها ، وقال ابن قتادة : إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها . وقال مقاتل بن حيان إقامتها : المحافظة على مواقيتها وإسباغ الطهور فيها وتمام ركوعها وسجودها وتلاوة القرآن فيها والتشهد والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، فهذا إقامتها ، وقيل إقامتها دوامها يقال

قام الشيء ، أى دام وثبت ، وإلى هذا المعنى أشار عمر بقوله : من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع .

وهنا بحوث طريفة لطيفة نلم بها فى اختصار وإيجاز لما فيها من فائدة وتنبيه على دقائق الآيات التى ستمر بنا بعد ذلك متصلة بأحكام الصلاة والله المستعان .

الصلاة فى القرآن والسنة :

لم تتعرض آيات الكتاب الكريم لتفاصيل أحكام الصلاة فى أوقاتها ، أو أعمالها ، وإنما عرضت لذلك إجمالا فى عدة مواضع منها قول الله تبارك وتعالى « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » سورة البقرة الآية ١٠٣ « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا » سورة النساء الآية ١٠٣ « وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » سورة هود الآية ١١٤ « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهودا » سورة الإسراء الآية ٧٨ « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا » سورة الإسراء الآية ١١٠ ، « وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لانسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى » سورة طه الآية ١٣٢ ، « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر والله يعلم ماتصنعون » سورة العنكبوت الآية ٤٥ ، « إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون » سورة المعارج الآية ٢٣ ، « إلا أصحاب اليمين فى جنات يتساءلون عن المجرمين ، ماسلككم فى سقر ؟ قالوا لم نك من المصلين » سورة المدثر

الآية ٤٣ ، « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » سورة البينة الآية ٥ ، « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون » سورة الماعون الآيتان ٤ ، ٥ .

ذلك مثل مما جاء فى القرآن الكريم عن الصلاة مجملا ، وخصت صلاة الجمعة بآية منفصلة ، وصلاة الخوف أو القتال بآية مفصلة كذلك ففى صلاة الجمعة يقول القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ماعند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين » سورة الجمعة الآية ١١ ، وفى صلاة الخوف أو القتال يقول القرآن الكريم: « وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ، ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر ، أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذاباً مهينا » سورة النساء الآية ١٠٢ .

كما عرضت الآيات كذلك للطهارة قبلها فى آية المائدة « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم » الآية ١٦ .

وقد أورد القرطبى فى هذا الموضع إحصاء لطيفاً فقال « فهذه جملة من أحكام الصلاة وسائر أحكامها يأتى بيانها فى مواضعها من هذا الكتاب

بحول الله تعالى فيأتى ذكر الركوع وصلاة الجماعة والقبلة والمبادرة إلى الأوقات وبعض صلاة الخوف فى هذه السورة (أى البقرة) ويأتى قصر الصلاة وصلاة الخوف فى النساء والأوقات فى هود وسبحان (يعنى الإسراء) والروم، وصلاة الليل فى المزمل، وسجود التلاوة فى الأعراف وسجود الشكر فى (ص) كل فى موضعه إن شاء الله». وفاته رحمه الله أن يشير إلى صلاة الجمعة فى سورة الجمعة وسبحان من لا تأخذه سنة ولا نوم.

ويلاحظ أن ذكر الصلاة فى كثير من الآيات يجىء مقروناً بالإيمان أولا وبالزكاة ثانياً وقد يقرن الثلاثة بالعمل الصالح وهو ترتيب ووضع طبعى فالإيمان أساس وهو عمل القلب والعمل الصالح مجملاً دليل صدق الإيمان وهو عمل الحس وأول عمل يطالب به المؤمن هذه الصلاة وهى عبادة البدن، ثم الزكاة والنفقة وهى عبادة المال وضريبة الكسب.

كما يلاحظ أن الآيات تطالب بإقامة الصلاة لا بالصلاة مطلقاً لأن المقصود ليس أداء الصلاة أداء شكلياً، ولكن المقصود أداؤها أداء حقيقياً بكمال صورتها الظاهرة وتوفر الخشوع وحضور القلب فيها، وهذا الحضور هو حقيقتها الباطنة.

أما السنة المطهرة فقد جاءت مفصلة لكل ماأجمله القرآن الكريم من أحكامها فأوقاتها وأركانها، وفرائضها، وسننها، ونوافلها، وكيفياتها، وكل مايتصل بها قولا وعملا، كلها مفصلة فى السنة، وأجمل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله «صلوا كما رأيتمونى أصلى» رواه البخارى.

حكم ترك الصلاة فى الفقه الإسلامى:

وقد أجمع فقهاء المسلمين على أن من ترك الصلاة جاحداً لفريضتها، ومنكراً لوجوبها خارج من الإسلام مرتد عنه لأنه كذب الله ورسوله،

واختلفوا فيمن تركها تكاسلا وإهمالا . فأما الجمهور منهم فقد ذهب إلى أنه ارتكب كبيرة من أشد الكبائر ولكنه لا يكفر بذلك . وذهب بعض الأئمة إلى أنه يكفر بهذا الترك وتفصيل ذلك فى موضعه من كتب الفقه ، وإنما ألممنا هنا بهذه الإشارة لبيان مالهذه الفريضة من منزلة فى الإسلام .

كيف فرضت الصلاة ومتى فرضت ؟

الجمع بين الأقوال الواردة فى ذلك يعطينا هذه الصورة : أنها فرضت على ثلاث مراحل ، ففى أول البعثة فرضت ركعتان بالغداة وركعتان بالعشى وصلاة الليل ، ودليل القائلين بهذا مانزل من الآيات فى مكة وفيها الأمر بالصلاة وما ورد من أن خديجة رضى الله عنها صلت مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد ثبت أنها توفيت قبل الإسراء على أرجح الأقوال فى وقته وهو قبل الهجرة بسنة ، ونقله العينى عن أبى إسحاق الحربى ويحيى بن سلام قال ويشهد له قوله تعالى « وسبح بالعشى والإبكار » وقوله تعالى « ياأيها المزمل قم الليل إلا قليلا » .

ثم زيد عددها فى ليلة الإسراء إلى خمس صلوات ركعتين ركعتين إلا المغرب فكانت ثلاثاً فى أرجح الأقوال . وقيل بل كانت اثنتين أيضاً . ويشهد له حديث عائشة رضى الله عنها الذى رواه البخارى قالت : « فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين فى الحضر والسفر فأقرت صلاة السفر وزيد فى صلاة الحضر » ثم زيدت ركعاتها بعد ذلك فى السنة الثانية من الهجرة إلى العدد المعروف فى الظهر والعصر والعشاء والمغرب .

وبهذا التصوير يجمع بين كل الأقوال الواردة فى وقت فرضية الصلاة وكيفيتها .

أثر الصلاة الروحى :

الإيمان الصادق بالله تبارك وتعالى يحدث ولا شك فى النفس شوقاً ولوعة وتحرقاً وحنيناً وحباً يصل إلى حد الوله بمناجاته سبحانه وتعالى وذكره والتبتل له والتذلل بين يديه ، وليس لهذا كله من مظهر إلا « الصلاة » التى هى الصلة بين العبد وربه والتى يقول فيها النبى صلى الله عليه وسلم : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » رواه مسلم .

وإذا أكثر العبد من الصلاة مستصحباً هذا الشعور أحدثت الصلاة فى نفسه أثراً عميقاً من التلذذ ووجد لها حلاوة فى قرارة فؤاده وإشراقاً فى حنايا قلبه يجعلها ربيع صدره وقرة عينه ، وكذلك كان الصالحون يقولون وكذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «وجعلت قرة عينى الصلاة» رواه أحمد والنسائى والحاكم فى المستدرك والبيهقى فى السنن ، وكان صلى الله عليه وسلم « إذا حز به أمر فزع إلى الصلاة » رواه أحمد وأبو داود ، ومن هنا كانت الصلاة ولا شك خير مهذب للأرواح ، ومطهر للنفوس من أدران الإثم والفساد « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر » .

أثر الصلاة الاجتماعى :

ولا يقف أثر الصلاة عند هذا الحد الفردى بل إن الصلاة كما وصفها الإسلام بأعمالها الظاهرة وحقيقتها الباطنة منهاج كامل لتربية الأمة الكاملة . فهى بأعمالها البدنية وأوقاتها المنتظمة خير ما يفيد البدن . وهى بآثارها الروحية وأذكارها وتلاوتها وأدعيتها خير ما يهذب النفس ويرقق الوجدان ، وهى باشتراط القراءة فيها — والقرآن الكريم منهاج ثقافة عالية شامل — تغذى العقل وتمد الفكر بكثير من حقائق العلوم والمعارف ، فيخرج المصلى

المتقن وقد صح بدنه ، ورق شعوره ، وغذى عقله . فأى كمال فى التربية الإنسانية الفردية بعد هذا ؟ ثم هى باشتراط الجمعة والجماعة تجمع الأمة خمس مرات فى كل يوم ، ومرة فى كل أسبوع على المعانى الاجتماعية الصالحة من الطاعة والنظام والحب والإخاء والمساواة بين يدى الله العلى الكبير ، فأى كمال فى المجتمع أتم من أن يقوم على هذه الدعائم ويشيد على هذه المثل العالية ؟

إن الصلاة الإسلامية تربية للفرد كاملة وبناء للأمة مشيد ، ولقد خطر لى وأنا أستعرض المبادىء الاجتماعية العصرية أن الصلاة الإسلامية أخذت بخير ما فيها وطرحت نقائصها ومساويها . فأخذت من (الشيوعية) معنى المساواة والتآخى بجمع الناس فى صعيد واحد لا يملكه إلا الله وهو المسجد . وأخذت من (الديكتاتورية) النظام والحزم بإلزام الجماعة اتباع الإمام فى كل حركة وسكون ومن شذ شذ فى النار . وأخذت من (الديمقراطية) النصح والشورى ووجوب رد الإمام إلى الصواب إذا أخطأ كائناً من كان . وطرحت كل ما سوى ذلك من فوضى الشيوعية . واستبداد الديكتاتورية وإباحية الديمقراطية فكانت عصارة سائغة من الخير لا كدر فيها ولا التواء .

كمال الصلاة :

وكمال الصلاة فى ثلاثة أمور : المحافظة على وقتها المحدد ، وإتقان ظاهرها بتجويد الأقوال واستيفاء الأعمال ، وإتقان باطنها بحضور القلب والخشوع . وهذا فى الحقيقة هو المقصود بإقامة الصلاة فمن فعل ذلك فقد أقامها ومن قصر فى شىء منها فهو غير مقيم لها .

ويقول بعض المخدوعين : إذا كانت حقيقة الصلاة والمقصود منها عبادة

الله وحضور القلب وتزكية النفس فما قيمة هذه الأعمال الظاهرة ، وإنما ينظر الله من عباده إلى قلوبهم ؟ وقد خدع هؤلاء أنفسهم فإن المعانى الوجدانية لا بد لها من رموز حسية حتى تظهر فى صورتها وتثبت فى النفوس بتكرارها . فالخشوع ومحبة الله والإخبات له كلها معانى وجدانية تظهر فى هذه الأقوال والأفعال التى يأتى بها المصلى التى جاءت فى الصلاة الإسلامية على نحو من الكمال عجيب من التكبير والركوع والسجود والجلوس حتى تشترك الجوارح كلها فى هذه العبادة وتصدر عنها على كل الصور والأوضاع الممكنة فى تعظيم الله تبارك وتعالى وتقديس عظمته وجلاله ، وبتكرار هذه الأعمال الرمزية تثبت فى النفس هذه المعانى الوجدانية ، فلا بد من ربط الأعمال بالأحاسيس والوجدانات . ومن قال غير ذلك فإنما يغالط نفسه ويريد أن يفر من أعباء التكاليف وما هى بالحقيقة بأعباء وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين .

علاج الوسوسة :

ويقول بعض آخر إن جمع القلب فى الصلاة على الله تبارك وتعالى يكاد يكون مستحيلا ، فإن الخواطر والوساوس تنتاب الإنسان وتتراكم عليه إذا دخل فى الصلاة ويكون التخلص منها من أعسر الأمور وأشقها وأصعبها فهل من علاج نافع فى ذلك ؟ .

والجواب أن من أنفع مايفيد فى هذا الأمر الاجتهاد فى الاستحضار أولا وجمع القلب عند استقبال القبلة وقبل التكبيرة ثم التكبير مع استحضار معناه ثم متابعة التلاوة مع استحضار مقاصد الآيات الكلية ثم استصحاب معرفة الحكمة فى كل قول أو عمل مع الإتيان به ، ومن واظب على ذلك بشىء من

الإجهاد أولا سهل عليـــه أخيراً ووجد لذلك لذة وحلاوة وفائدة محققة إن شاء الله ، وأصبح بتوفيق الله من المقيمين للصلاة .

الإنفاق فى سبيل الله

« ومما رزقناهم ينفقون »

الرزق : العطاء ، ورزقناهم : أعطيناهم ، وهو من رزقه يرزقه رزقاً بالفتح وهو المصدر ، وبالكسر الإسم وجمعه أرزاق ، والرازقية : ثياب كتان بيض . والرزق بلغة أزد شنؤة : الشكر ، ومنه قوله عز وجل « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » أى شكركم ويقول رزقنى أى شكرنى .

والرزق عند الجمهور ما صح الانتفاع به حلالاً كان أو حراماً ، وذهب بعضهم إلى أن الحرام لا يسمى رزقاً وأن الرزق مشروط بما يملك . وهو خلاف لا ثمرة له فى المقصود من الآيات .

والإنفاق إخراج المال من اليد ، ومنه نفق البيع أى خرج من يد البائع إلى المشترى ونفق الزاد فنى وفرغ .

واختلفوا فى المراد بالإنفاق هنا . فقيل : الزكاة المفروضة ، وروى هذا عن ابن عباس لقرنها بالصلاة .

وقيل : نفقة الرجل على أهله ، وروى ذلك عن ابن مسعود لأن ذلك أفضل النفقة . روى مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجراً الذى أنفقته على

أهلك » وروى عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله ، ودينار ينفقه على دابته فى سبيل الله عز وجل ، ودينار ينفقه على أصحابه فى سبيل الله » قال أبو قلابة : وبدأ بالعيال ثم قال أبو قلابة : وأى رجل أعظم أجراً من رجل ينفق على عيال صغار يعفهم أو ينفعهم الله به ويغنيهم .

وقيل : المراد صدقة التطوع ، وروى عن الضحاك : نظراً إلى أن الزكاة لا تأتى إلا بلفظها المختص بها وهو الزكاة . قال الضحاك : كانت النفقة قرباناً يتقربون بها إلى الله عز وجل على قدر جهدهم حتى نزلت فرائض الصدقات والناسخات فى براءة وقيل هو عام ، وهو الصحيح . ملخصاً من القرطبى .

وأقول : إن الأمر أعمق من التحديد . والمراد به أولا — والله أعلم — بيان أثر التقوى والإيمان الصحيح فى النفوس الطيعة المستعدة للخير من زهادة فى أعراض هذه الحياة الدنيا ومحبة لإشاعة الخير فى المجتمع ومبادرة إلى الإيثار والبذل فى سبيل إسعاد البشر أو تخفيف آلامهم وذلك غير قاصر على وقت أو قدر ، فالذى تتأثر نفسه بهذه المشاعر ينفق مما رزقه الله على نفسه وعياله وعلى الناس تطوعاً وفريضة بالليل وبالنهار وفى كل فرصة تتاح له .

سياسة القرآن فى الإنفاق :

وتدور سياسة القرآن الكريم فى الإنفاق على هذه القواعد :

١ — الترغيب فى الإنفاق فى سبيل الله ومثال ذلك قول الله تبارك وتعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى

كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء » البقرة الآية ٢١٦ .

٢ — الترهيب والتخويف من البخل وكنز المال « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » التوبة الآية ٣٥ .

٣ — التحذير من الإسراف والتنبيه إلى التوسط « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً » الإسراء الآية ٢٧ . « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » سورة الإسراء الآية ٢٩ . « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » الفرقان الآية ٦٧ .

٤ — إيثار الأقرب فالأقرب والأحوج فالأحوج « يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل » البقرة الآية ٢١٥ « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » المعارج الآية ٢٥ .

٥ — اللين فى الرد عند الاعتذار « وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسوراً » الإسراء الآية ٢٨ .

٦ — التنزه عن المن والأذى عند العطاء « يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شىء مما كسبوا » البقرة الآية ٢٦٤ .

٧ — ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى وطيب النفس بالنفقة « مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير » سورة البقرة الآية ٢٦٥ « وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون » سورة التوبة الآية ٥٤ .

٨ — افتراض الزكاة على القادرين لتنفق فى وجوه من ضروريات الإصلاح الإجتماعى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » سورة التوبة الآية ٦٠ .

٩ — الإشادة بفضل الإيثار والتطهر من الشح « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » سورة الحشر الآية ٩ « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيراً إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » سورة الدهر الآيتان ٨ ، ٩ .

١٠ — تفضيل السر على العلانية إلا لحكمة « إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير » سورة البقرة الآية ٩ .

ولا شك أن لهذه السياسة أثرها البالغ فى صلاح المجتمع الإنسانى وتحقيق معنى التكافل والعدالة واستقامة الأوضاع فيه ، ولا شك أن من لاحظها

وأنفق مما رزقه الله فى حدود قواعدها مع إقامة الصلاة والإيمان بالغيب فهو من خيار المتقين المهتدين بهداية القرآن الكريم .

أفضل نظام اقتصادى :

ولا شك أن القرآن بسياسته هذه فى الإنفاق قد أقام الاقتصاد الاجتماعى على المزج بين أصلين أساسيين أولهما الاعتراف بمواهب الفرد وحقه فى ثمرات كسبه وعدم الحد من جهوده فى هذه السبيل ما دام يكتسب من حلال طيب لا إثم فيه ولا عدوان ، وهذا هو الأساس الذى قام عليه النظام الذى يسمونه فى هذا العصر (بالرأسمالية) وهو وحده لا يؤدى إلى صلاح المجتمع أو استقرار الأمور بين الناس على وفاق وصفاء فكان لا بد من المزج بينه وبين الأصل الثانى وهو : تقرير حق المجتمع فى كسب الفرد ووجوب التكافل بين أبناء الأمة الواحدة وهو الأساس الذى قام عليه النظام الذى يسمونه فى هذا العصر (بالشيوعية) وهو وحده لا يؤدى كذلك إلى صلاح المجتمع أو استقرار الأمور فيه بين الناس على وفاق وصفاء فكان لا بد من المزج بينه وبين الأصل الأول فجاء نظام القرآن بهذا المزج بين أفضل ما فى النظامين وقدمه للناس سائغاً فى صورة (اشتراكية معقولة) عمادها تقديس الأخوة وروحانية العاطفة وحب الخير والإيمان بالجزاء فى الدنيا والآخرة . وليس ذلك فحسب فإن من النفوس من لا تهزه هذه النواحى وحدها ، بل لاحظ أيضاً وجوب تدخل الدولة وحماية هذا السمو بالتشريع بل بالقتال إذا احتاج الأمر عند اللزوم ومن هنا قال الخليفة الأول رضى الله عنه « والله لو منعونى عناقاً كانوا يؤدونها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها » .

تقريب :

كما لاحظ الإسلام بأوضاعه الاقتصادية الدقيقة فى الكسب والإنفاق التقريب بين الطبقات بحيث ضاقت الشقة بين الثروة والفقر إلى أقصى حد فمن حيث الأغنياء حدد أمامهم أبواب الكسب وفتح لهم أبواب الإنفاق وفرض عليهم الزكاة وحرم الربا وحيل بينهم وبين مظاهر الترف ولم تعتبر ثروتهم فى عرف المجتمع الإسلامى مظهراً من مظاهر التميز والاستعلاء وأنذروا بأشد الوعيد فى الدنيا والآخرة إذا لم يؤدوا حق الله والناس فى المال . ومن حيث الفقراء رفع عنهم معنى النقص الاجتماعى بسبب الفقر وفرض عليهم العمل وفتح أمامهم أبوابه وجعلوا عند العجز فى ضمان الأقرباء أولا والأغنياء من الأمة ثانياً وبيت مال الدولة ثالثاً ونقرر بالتشريع حقهم المعلوم فى أموال الأثرياء ثم ألزمت الدولة بعد ذلك بملاحظة هذا التوازن والمبادرة إلى المحافظة عليه كلما عرضت له عوارض الاختلال ووضعت فى يدها كل السلطات التشريعية والتنفيذية اللائقة لإصلاح الحال وليس بعد ذلك زيادة لمستزيد ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

الإيمان بالكتب

« والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون »*.

بعد أن وصف الله المتقين بالإيمان بالغيب وأوضح أمثلته مما يطلق عليه علماء العقائد « السمعيات » وبإقامة الصلاة ، وبالإنفاق مما رزقهم الله ، أثبت

(*) نشرت بالعدد الخامس من مجلة الشهاب الصادر فى غرة جمادى الأول سنة ١٣٦٨ هـ (مارس سنة ١٩٤٨ م) .

لهم وصفاً رابعاً هو الإيمان بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل من قبله على أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ووصفاً خامساً وهو الإيقان بالآخرة . والذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو القرآن الكريم ومن أسمائه الفرقان والذكر والنور والشفاء ، والذى أنزل على الذين من قبله كتب كثيرة وصحف متعددة ذكر القرآن منها صحف إبراهيم وتوراة موسى وإنجيل عيسى وزبور داود . والمعروف فى العالم اليوم من الكتب السماوية القرآن وهذه الثلاثة الأخيرة التوارة والإنجيل والزبور بأيدى أهل الكتاب من اليهود والنصارى ويجمعها عندهم (الكتاب المقدس) الذى يتألف من العهدين القديم والجديد .

ذكر القرآن الكريم صحف ابراهيم فى آية واحدة من سورة الأعلى مقرونة بصحف موسى فى قوله : « إن هذا لفى الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى » الآيتان ١٨ و ١٩ وذكر زبور داود فى آية من سورة النساء « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبورا » الآية ١٦٣ وذكر التوراة وحدها مثنياً عليها بالصدق والخير والهداية والنور فى كثير من الآيات منها قوله تعالى : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » سورة المائدة الآية ٤٤ كما ورد ذكر الألواح التى تلقاها موسى من ربه فى سورة الأعراف موصوفة بأحسن الأوصاف « وكتبنا له فى الألواح

من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين » الآية ١٤٥ وهل الألواح من التوراة أو هى كتاب غيرها أوحى الله به إلى موسى عليه السلام أيضاً قولان وأرجح أنها منها إذ أن اسم التوراة يطلق على ما أنزل على موسى عليه السلام من صحف وكتب . وإن ورد فى بعض الآثار أن الله أنزل على موسى صحفاً غير التوراة . وذكر الإنجيل فى القرآن وحده أحياناً ومقروناً بالتوراة على أنه مصدق لها أحياناً أخرى ومن الأول قول الله تبارك وتعالى : « وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » سورة المائدة الآية ٤٧ ومن الثانى قوله تعالى : « وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين » سورة المائدة الآية ٤٦ كما ذكرت الكتب الثلاثة مقترنة فى آية واحدة فى مواضع عدة على أنه يصدق بعضها بعضاً فى الهداية منها فاتحة سورة آل عمران « ألم الله لا إله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام » ١ و ٤ ومنها قوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن » سورة التوبة الآية ١٨١ ، وقد افترض الله على النبى محمد صلى الله عليه وسلم وعلى أمته المسلمة الإيمان بكل هذه الكتب السابقة والأنبياء السابقين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كما قال تعالى « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتي النبيون من

ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » سورة البقرة الآية ١٣٦
وقال تعالى « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله » سورة البقرة الآية ٢٨٥
وقال فى آية ثالثة « فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير » الشورى الآية ١٥
وفى آية رابعة « يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً » سورة النساء الآية ١٣٦ كما عاب على كثير من أهل الكتاب أنهم يؤمنون ببعض هذه الكتب ويكفرون بالبعض الآخر « وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم » سورة البقرة الآية ٩١ وفى سورة النساء « إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهينا » الآيتان ١٥٠ و ١٥١ .

وجاء فى بعض الآثار ذكر لعدد الكتب المنزلة السابقة وبعض ما أنزل منها على الأنبياء السابقين غير هذه الأربعة فقد روى القرطبى عن أبى ذر قال قلت يا رسول الله كم كتاباً أنزل الله ؟ قال « مائة كتاب وأربعة كتب أنزل الله على شيث خمسين صحيفة وعلى أخنوخ ثلاثين صحيفة وعلى ابراهيم عشر صحائف وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان » وقال القرطبى أخرجه الحسين الآجرى

وأبو حاتم البستى ، وقد أورده السفارينى فى عقيدته وفى شرحها عند الكلام على الإيمان بالرسل مطولا عن صحيح بن حبان ثم قال وقد تكلم عليه الولى العراقى ورد على ابن حبان جماعة من الحفاظ لإدخاله هذا الحديث فى الصحيح ونقل عن ابن تيمية عن الإمام أحمد بن حنبل أنه كان يقول يجب الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام والإقرار بهم فى الجملة مع الكف عن عددهم ، وكذلك ذكر محمد بن نصر المروزى وغيره من أئمة السلف قال وهذا يبين أنهم لم يعلموا عدد الكتب والرسل وأن حديث أبي ذر فى ذلك لم يثبت عندهم .

وبما أن القرآن الكريم والسنة الثابتة لم يتعرضا لذكر الكتب بالتفصيل كما لم يتعرضا لما فى أيدى بعض الأمم والطوائف من كتب كالبراهمة والبوذية والكنوفوشيوسية والزرادشتية وغيرها فمن الواجب أن نقف عند ما ذكر الله ورسوله وأن نؤمن بما افترض علينا أن نؤمن به .

ومن تمام الفائدة أن نتناول فى بحث موجز « شخصية » كل كتاب من هذه الكتب الأربعة وماذا يراد به فى الماضى والحاضر .

القرآن الكريم :

الكتاب الذى أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم وهو « المجموع فى المصاحف المحفوظ فى الصدور المقروء بالألسنة المعروف بين الناس » .

نزل مفرقاً بحسب الحوادث فى نحو اثنتين وعشرين سنة وشهرين واثنتين وعشرين يوماً على أرجح الأقوال وكان تنجيمه مثار الاعتراض من المشركين وقد ذكر القرآن ذلك ورد عليه فقال فى سورة الإسراء : « وقرآناً فرقناه

لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » الآية ١٠٦ . وقال فى سورة الفرقان : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً » الآيتان ٣٢ ، ٣٣ .

وكان أول نزوله بمكة فى غار حراء واستمر ينزل بمكة من رمضان سنة ٤١ إلى ربيع الأول سنة ٥٤ من ميلاده صلى الله عليه وسلم ، ونسبة ما نزل منه فى هذه الفترة يساوى ١٩/٣٠ من مجموعه ويسمى هـذا القسم المكى لذلك ، ونزل الباقى بالمدينـة من ربيع الأول سنة ٥٤ إلى ذى الحجة سنة ٦٣ من ميلاده صلى الله عليه وسلم وهى السنة العاشرة من الهجرة وما نزل من القرآن فى هذه الفترة يسمى المدنى لذلك .

وأول آياته نزولا على أرجح الأقوال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » العلق الآيات ١ — ٥ وقد نزلت فى رمضـان بغار حراء وسميت ليلة النزول ليلة القدر « إنا أنزلناه فى ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خيرٌ من ألف شهر تنزّلُ الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلامٌ هى حتى مطلع الفجر » ووصفها القرآن بالبركة والرحمة فى سورة الدخان « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين رحمة من ربك إنه هو السميع العليم » الآيات من ٣ — ٦ . ولا خلاف فى أنها كانت فى رمضان لقول الله تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان » سورة البقرة الآية ١٨٥ ولأن رمضان هو الشهر الذى اعتاد

الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة أن يعتكف فيه بالغار ويتحنث ويتعبد روى ابن إسحق عن وهب بن كيسان عن عبيد بن عمير بن قتادة الليثى ، قال كان رسول الله صلى الله عليه يجاور فى حراء فى كل سنة شهراً ، وكان ذلك مما تحنث به قريش فى الجاهلية ، ثم قال حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله تعالى فيه ما أراد من كرامته من السنة التى بعثه الله تعالى فيها وذلك الشهر رمضان خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حراء كما كان يخرج لجواره إلخ ... فهو ينص على أن هذا الشهر هو رمضان . وأما تحديد الليلة ففيه خلاف كثير نخلافهم فى ليلة القدر ويرجح ابن إسحق أنها كانت ليلة السابع عشر من الشهر مستأنساً بقول الله تبارك وتعالى : « إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » سورة الأنفال الآية ٤١ والمراد بيوم التقاء الجمعين يوم التقاء المسلمين والمشركين ببدر وقد كان يوم الجمعة ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة . وحكى القسطلانى فى شرحه على البخارى خلاف العلماء فى تحديد هذه الليلة على أقوال كثيرة ومنها القول الذى رجحه ابن إسحق . وقال إنه رواه ابن أبى شيبة والطبرانى من حديث زيد بن أرقم .

* * *

وآخر آياته نزولاً فى أرجح الأقوال قول الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » المائدة الآية ٣ .

حكى الطبرى أن ذلك يوم عرفة عام حج النبى صلى الله عليه وسلم حجة الوداع ، ولم ينزل على النبى صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية شىء من الفرائض ولا تحليل شىء ولا تحريمه وأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يعش بعد نزول

هذه الآية إلا إحدى وثمانين ليلة وروى ذلك عن ابن عباس والسدى وابن جريج . وروى الشيخان عن طارق بن شهاب قال قالت اليهود لعمر بن الخطاب رضى الله عنه إنكم لتقرءون آية لو أنزلت فينا لاتخذناها عيداً فقال عمر إنى لأعلم حين أنزلت وأين أنزلت وأين رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزلت : أنزلت يوم عرفة ، وأنا والله بعرفة فى يوم جمعة يعنى « اليوم أكملت لكم دينكم » . وروى النيسابورى فى تفسيره عن ابن عباس أنه قرأ هذه الآية ومعه يهودى فقال اليهودى لو نزلت علينا فى يوم لاتخذناه عيداً فقال ابن عباس إنها نزلت فى عيدين اتفقا فى يوم واحد فى يوم جمعة وافق يوم عرفة .

* * *

ومجموع القرآن ١١٤ سورة . أولها الفاتحة وآخرها الناس وعدد آياته فى قول المكيين ٦٢١٩ وفى قول الكوفيين ٦٢٣٦ وفى قول البصريين ٦٢٠٤ وفى قول أهل الشام ٦٢٢٦ أو ٦٢٢٥ وسبب الخلاف فى الآيات الخلاف فى بعض مواضع الوقف وعدد كلمات القرآن فى قول عطاء بن يسار ٧٧,٤٣٩ كلمة . وعدد حروفه فيما رواه سلام أبو محمد الحمانى ٣٤٠,٧٤٠ حرفاً .

روى الحمانى أن الحجاج بن يوسف جمع القراء والحفاظ والكتاب فقال أخبرونى عن القرآن كله كم من حرف هو قال وكنت فيهم فحسبنا فأجمعنا على أن القرآن ٣٤٠,٧٤٠ حرفاً قال فأخبروني إلى أى حرف ينتهى نصف القرآن فإذا هو فى الكهف « وليتلطف » فى الفاء . قال فأخبرونى بأثلاثه فإذا الثلث الأول رأس مائة من براءة والثلث الثانى رأس مائة وواحدة من طسم الشعراء والثلث الثالث ما بقى من القرآن ، قال فأخبروني بأسباعه على

الحروف . فإذا أول سبع فى النساء « فمنهم من آمن به ومنهم من صد » فى الدال ، والسبع الثانى فى الأعراف « أولئك حبطت » فى التاء . والسبع الثالث فى الرعد « أكلها دائم » فى الألف من آخر أكلها . والسبع الرابع فى الحج « ولكل أمة جعلنامنسكا » فى الألف . والسبع الخامس فى الأحزاب « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة » فى الهاء . والسبع السادس فى الفتح «الظانين بالله ظن السوء » فى الواو . والسبع السابع ما بقى من القرآن — قال سلام أبو محمد عملناه فى أربعة أشهر — وكان الحجاج يقرأ فى كل ليلة ربعاً فأول ربعه خاتمة الأنعام والربع الثانى فى الكهف والربع الثالث خاتمة الزمر والربع الرابع ما بقى من القرآن . قال القرطبى بعد أن نقل هذه العبارات وفى هذه الجملة خلاف مذكور فى كتاب البيان لأبى عمرو الدانى من أراد الوقوف عليه وجده هناك .

وإنما أطلنا فى نقل هذه الأرقام والأقوال لندل على مبلغ عناية المسلمين بالقرآن الكريم والتدقيق فى كل ما يتصل به بما أنه أصل دينهم وأساس حياتهم الدنيوية والأخروية .

حقوق طبع هذه الرسالة ، وبقية رسائل مجموعة كتابات
الإمام الشهيد حسن البنــا محفوظة بإذن خاص لـ

دار الفكر الإسلامى

ولكافة الاستعلامات والأسئلة يمكن الإتصال بها بعنوانها
٦٢ شارع الأزهر — عمارة الأوقاف تليفون ٧٤٤٩٨

[illegible]

2 - APR 2007